کایمیرا 19

كايميرا 19 (رواية)

سميحة خريس

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

المراجعة اللغوية: م. سامر المجالي

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-537-2

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(3892/ 8/ 2022)

813.03

خريس، سميحة علي عناد

كايميرا/ سميحة علي عناد خريس. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(148) ص

ر. إ: 3892/ 8/ 2022

الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

سميحة خريس

كايميرا 19

رواية

(1)

مطار الملكة علياء الدولي شديد البرودة على غير العادة، هادئ الحركة لا كما يليق بردهات مطارات العواصم النَّشطة، محتفظٌ بأناقته ونظافته المفرطتَين، يغمره ضوء غامض كما لو أنه مكشوف على فضاء المدينة، رغم تحصينه بعوازل إسمنتية نفّذها الفرنسيون في كثير من مطارات العالم على الشاكلة نفسها. يتسرّب الضوء من مصابيح اصطناعية في السقف الإسمنتي، ومن الواجهات الزجاجية في الأطراف؛ التي اتخذت شكل أجنحة على جانبي المطار.

يجرّ الناس خطواتهم وحقائبهم ذاهلين بتثاقل؛ مُتخلّين عن الخطوات السريعة للمسافرين، مغطّين أفواهَهم وأنوفَهم، عازلين أنفاسَهم عن هواء المكان بكِمامات متنوعة ما بين زرقاء وسوداء، وقماشية وورقية.

لديّ أسباب مختلفة تمامًا عن أسباب أحزانهم البادية في نظرات عيونهم المشتَّتة، يمكن للناظر الواعي أن يراها فادحة متقيّحة. وأنا في كامل وعيي رغم الوسواس الذي أجيد إسكاته في صدري، لم أكن معنيًّا بكوفيد التاسع عشر! وقد حلَّ بيننا، ولم أُعِر انتباهًا من الأساس للشائعات التي تتحدَّث عن احتمال إغلاق المطارات وتوقُّف حركة الطيران. أعددت نفسي لهذا السَّفر منذ مدة، كأنه الأهم في مجمل حياتي الحافلة بالشؤون المهمَّة والعظيمة. قمتُ بالإجراءات كافة بصمت دون

مساعدة من أحد. رتبتُ لسفري وحجزت موعدي في العاصمة الغارقة في الضباب دون وسطاء، وسافرت باسمي الصريح الممهور في جواز سفري: أوس منصور البيرق.

أكره الحِبر الذي يَنسخ تعرّجات بصمة الإصبع، ترغمني عليه المعاملات الرسمية، وأكره الأجهزة الذكية التي تتعقَّب تحركاتي: هاتفي، ساعتي، لوح الكمبيوتر الصغير.. أخدعها في كل سفر بإلقائها في الحقائب القديمة خلفي في منزلي أو الفندق الذي أنزل فيه. أتفادى متابعة الذكاء الجديد لتحركاتي، فليست هناك شيفرة مزروعة في ساعة يدي، ولا شريحة تخترق جسدي. لا أسمح لكل التُّرَّهات التي اخترعها البشر بتعقبي. إذا ما أردتُ الاختفاء فإني أختفي كأنّي لم أوجد قَط، حتى إن العامّة لا يعرفون علاقتي بمصنعي الذي أملكه. لا أمنح وجهي للإعلان عنه، ولا أتحدَّث عن إنجازاتي على الشاشات، لا يروق لي التشدق بكوني عصاميًّا أو عظاميًّا. إذا رُمت الاختفاء فلن تجدني في دفاتر رسمية ولا على صفحات عالم افتراضي بديل. أكره الآلات المخيفة في المطارات، تلك التي تقتحم جوف الحقائب كاشفةً محتوياتها، أو تمسح جسدي بالأشعة باحثة عن المعادن، وتلك التي تمتلك عيونًا صغيرة راسمةً بصمة عيني.. تصيبني الحيرة؛ أيّ العينين أمنحها؟ وهل سيكون هناك فرق تدركه الآلات الخبيثة؟ وهل ستكشف مروري بها تحت اسمٍ آخر في زمنٍ آخر؟

لم يبدُ موظفو المطار معنيين ببصمة عيني كعادتهم، كان من المهم قياس درجة حرارتي وإبراز الوثيقة التي تؤكد أن نتيجتي سلبية في فحص كورونا.

نظر ضابط الجوازات في أوراقي باستهانة، لا تشي الصفحات وأختام المطارات بكثرة أسفاري. آخر مرة غادرت فيها عمّان كانت منذ ستة أشهر حين اصطحبتُ زوجتي إلى إسطنبول لأسبوع كامل، إلّا أن هذا دليل ناقص؛ فبين الفترتين اللّتين يدلُّ عليهما جواز سفري، طرتُ خارج الأردن ما لا يقلُّ عن أربع مرات تحت أسماء أخرى. وقد تدربت على خداع جهاز بصمة العين الذي يستقبلني عند العودة، وذلك بفضل عدسات لاصقة أضعها فَتُشوّش الرصد، أو لأن هذه الأجهزة معطّلة ومشكوكٌ في كفاءتها. أكره كل ما يترصد الإنسان في حركاته وسكناته، لأني تحديدًا أحتاج إلى المرور الهيِّن السَّلس من العيون. وقد باتت لي خبرة وافية في السخرية من تلك الوسائل التكنولوجية المنقوصة. لكنّي في سفري هذا تحديدًا، لم أكن قد أحطت نفسي بكل الاحتياطات والأسرار المعتادة، رغم أن سِرّي ثقيل وموجع هذه المرة.

أقلعت الطائرة فوق أرض مبلَّلة بما تركه مطر المساء حين دخل اليوم الثاني من شهر فبراير صانعًا تراصًّا جميلًا للرقمين (2) و (0)، 2/ 2/ 2020، منشِّطًا توقعات النسوة العجائز وضاربي الودع والمتنبئين المشهورين عبر العالم، بأنه رقم لن يتكرر أبدًا، وأنه يوم استثنائي.

القلق والترقب والغموض؛ رفاق السفر الدائمين، حتى لو لم أحمل في حقيبتي رزمَ الهيروين التي أخرج بها عبر مطار بيروت، ولم يكن بين أوراقي الاتفاقيات التي وقَّعتُها في زوايا خافتة الأضواء في إسطنبول لتوريد أسلحة لجماعة متمردة. حتى وأنا أُشرف على استيراد شحنة الكاكاو من كوالالمبور لمصنعي العمّاني الصغير، لا يتوقف القلق عن نقر رأسي بثبات طائر حفار الخشب وإلحاحه.

على هامش التفكير تمرُّ صفقة القرن التي أعلنها توم وجيري، ترامب ونتنياهو قبل أيام، مؤامرة ستقلب الطاولة على رؤوس الناس. قد تُفيدُني أو تضرُّني، على الأكثر تُفيدُني إذا تسنّى لي الصفاء اللازم للتفكّر بها واستغلالها كما هو متوقع من رجل ثعلب مثلي، بل أي ثعلب؟! أنا أكثر حيطة وأدهى من الثعلب. في تلك اللحظة على وجه التحديد لن أفكّر بخطوتي القادمة التي ستترتب على هذه الصفقة الغريبة، لديَّ ما يشغلني، وأتعجَّب أن الأمر التافه البسيط الشخصيَّ جدًّا يتقدَّم كل شؤوني الخطيرة. لم يمنعني قلقي وانتباهي لمهمتي عن أن أكون دقيقًا ومرتَّبًا في شؤون عملي. تركتُ خبرًا في مصنع الشوكولاتة وفي بيتي يفيد بأنني في مهمّة تجارية في باريس، رغم أن وجهتي لندن. أستمتع بكذبتي التي تترك مَن خلفي في عماهم، لكن أسبابي مغايرة هذه المرة.

لعله فصل جديد في حياتي، تغيُّرٌ درامي حلمت به مطولًا، تمنيته في أعماقي وإن تظاهرتُ بغير ذلك. لا يوافقني عقلي على سفري هذا، ولا

على مخاوفي التي تنهش ثقتي بنفسي، والأمنيات الخفية التي تجعلني هشًّا. أنا قبل كل شيء رجلٌ عقلاني، مع ذلك أخدع عقلي بمنطق مقبول، يحقُّ لي الانزياح قليلًا عن الصرامة التي أعامل بها حياتي، سفري هذا انزياح يثير فيّ لذة تشوبها نشوة الألم.

لم أحرث أرضًا ولا مخرت عباب بحر، ولكني اقتحم السماوات العالية. لقد جعلتني كثرة أسفاري خيَّالًا فضائيًّا، إلّا أن كسرًا في قلبي سحق مشاعر العظمة التي تتملكني كلما حلّقَتْ بي الطائرات.

هبطَت عمّان تحتي، بدت بيوتها الحجرية البيضاء لعبة الخالق التي صُفَّت بعشوائية. ولم يكن المطر قد أنبَتَ العشب الأخضر الجديد بعد، فاستلقت تحتي مدينةٌ من حجر موزّع فوق رمل ممتد، وانبعث من أحشاء الطائرة نشيج وحشرجة واهنَين وهي تحلق مغيبة العمران وكل ما هو مدينة أو أرض. مرت الغيوم الرمادية ببطء عبر الكوة الصغيرة مثل حلم ثقيل، والتمعت في أطراف الغيمات الموشَّحة بلون السّكن انعكاسات صفراء لشمس تغيب. لم يكن المشهد مبهجًا، بل إن متابعة النظر إليه تركت في نفسي اكتئابًا مثل بثرة صديد. ردني التكتّل الرمادي المائل إلى العتمة بقسوة إلى الفضاء الإنجليزي المر، داهمني الشعور الفاجع لغياب حريتي طوال سنوات الدراسة الثقيلة التي حاصرني فيها مزيج المطر والضباب.

مضت سنوات الدراسة كأن قدميَّ عالقتان تخوضان سبخة الطين في مدخل خيمتنا الخفيضة في سهل مادبا، بينما اجتاز كايد؛ ابن الشيخ لكنْ شريكي في اسم العائلة، عتبة بيته المبلّطة بالرخام، وطار بجناحين من ثقة في شوارع لندن العتيقة. أكره السفر الذي يعجن ذكرياتي صانعًا وشائج وهمية بين لندن وضاحيةٍ للبدو في أطراف مادبا، فمثل هذه التصورات حماقة تعني أنّي لا أعيش هنا أو هناك، عدا عن ارتباك الأزمنة والمشاعر.

هربتُ من كوّة الطائرة إلى عالم محدود ضيق لا يزيد على ممر الطائرة القصير في درجة رجال الأعمال، المنفصل بستارة عن الممر الأطول للجالسين في مقاعد الدرجة الاقتصادية. التقطتُ نظرات المضيفة؛ عيناها ملوَّنتان تميلان إلى خضرة يانعة، بحكم العادة وبلمسة سريعة عفوية تحسَّستُ عنقي بكفي مطمئنًّا إلى جفاف ياقة قميصي، ثم أشحتُ بنظراتي عن رشاقة المضيفة الفاتنة وهي تتقدم نحوي. لا رغبة لديَّ في معرفة هل كانت ترتدي عدسات لاصقة أم أنها تحمل جينات العيون الملوَّنة حقًّا؟ لم أخلع نظاراتي الشمسية الداكنة أيضًا، ففوتُّ عليها وعلى سواها ملاحظة اختلاف اللون في حدقتي عينيّ؛ البني المحروق في عين واسعة، والأزرق المشوب ببياض لامع في حدقة ضيقة. ظاهرة لم يعد أحد يذكرها أمامي، ولكني أستطيع التقاط الصدمة التي تُحدِثُها لمن يراها لأول مرة.

أعرف النظرات التي تدرّبت المضيفات على تصويبها نحو العزّاب الجالسين في درجة رجال الأعمال أو مقصورات النخبة في الطائرات، حيث تفوح رائحة النظافة وبرودة منعشة. مسحت في رحلاتي السابقة أجسادهن بتهور لأقدّر صيغة التبادل المرغوب مع نظراتهن المرحة الحذرة. أقيس مَن أمامي بحذر، بعضهن يستنكرن إقبالي ويَثُرن لشرف مهنتهن. شهيتي للأجساد البضَّة الرخيصة العابرة، جوع مكبوت. لم أعرف جسد امرأة حتى طرتُ طالبًا العلم، وكلما توسَّعت أعمالي قلَّتْ رغبتي في النساء، ولكني لم أمتنع امتناعًا كليًّا تزجيةً للوقت واختبارًا للذكورة، وربما انتقامًا من سنوات الحرمان. أسبابي في اختبار المغامرات الصغيرة الخالية من المسؤوليات والمتعة الحقيقية لا تهمُّ حقًّا، فقد بهتت لهفتي وصرت أجامع بنات الهوى أو المرافقات العابرات والنساء اللواتي تجمعني بهن الصدف والوقت القصير.

الغرباء يتجاذبون سريعًا دون محاذير، يصحو الحيوان فيّ وهلة ثم بخفة إذا أفرغت طاقتي الحبيسة التقطتُ ملابسي وارتديتُها على عجل متخذًا هيئتي الوقورة المحافظة، ناسيًا إذا ما منحتني الدقائق المارقة متعة ما. هكذا كنت أفعل، ككل الرجال، لمجرد أنني أستطيع، ولا يجدر بي تغيير عاداتي، فوراء ذلك مخاطر قد تلفت الانتباه إليَّ، لكنني هذه المرة تجاهلت تمامًا الصبية الأنيقة الجميلة، لست راغبًا في لهو سريع في حجرة الفندق والملاهي الليلية اللندنية، لدي ما يقلقني، وينقصني المزاج

والرغبة، بل ومحفِّزات التحدي، أُفضِّل أن أبقى وحيدًا مع قلقي وهو يتنزَّل في الروح بتؤدة تاركًا في حنجرتي حموضة الخوف.

انحنت المضيفة كأنها تساعدني على ربط حزام الأمان ففاح عطرها قويًّا، انبعث من نحرها والنقطة الواقعة أعلى فتحة صدرها إلى أنفي. «بويزن» عطر فجّ صادم لا يليق بمضيفة طيران، لكنَّها تستخدمه مما يدلُّ على افتقارها للذوق وحسن التقدير، يكتشفه أنفي الحساس للروائح بسهولة. في الأحوال العادية، كنت سأستعرض أمام تلك الفاتنة موهبتي في اكتشاف أسماء العطور من عَبَقِها، تثير قدرتي المذهلة على رصد الروائح النساء الصغيرات المفتونات بإضافاتهن الجمالية إلى أجسادهن، يكفي الرجل أن يدرك خصوصية رائحة المرأة كي تغمز صنارته، وقد أفدت من موهبتي الفذّة مرارًا، ولكني لا أرغب في مجاراة الجميلة التي انحنت تتأكد من ربط حزام الأمان.

مسافر على درجة رجال الأعمال، رجل أربعينيٌّ وسيم، فرصة سانحة لعلاقة سريعة طيّارة، إلا أني لا أشعر بالحماسة التي تعودت أن تكون لي إزاء تلك العلاقات العابرة حين أستمتع بالتعرف على مذاق النسوة من كل جنس ولون. مغامراتي السرّيّة ليست خيانة لزوجتي، ولا أُصنِّف عزوفي عن حسناء الرحلة اللندنية وفاءً من نوع ما؛ لكنه الضجر مشتبك بقلق يتعلَّق بأسباب سفري.

أجبت باقتضاب على عروضها السخية حول الشراب الذي أفضّله والطعام الذي أختاره، ثم قررت قتل الوقت البطيء بالنوم. شددت القناع القماشي الذي يذكّرني بمغامرات زورو مغرقًا عينيّ بالكامل في إعتام قسري، طالبًا عدم إيقاظي إلا عند الوصول. وقبل إسدال ستار الظلمة على ناظريّ استرقتُ نظرة من الكوّة. هناك كانت السماء بغيماتها الرماديات وتحتها صحارٍ قادرة على ابتلاع أيّ حيٍّ يمرُّ فوقها، ولم تكن الطائرة قطعًا جسدًا حيًّا، طار المعدن النفيس واستسلمتُ لإغفاءة قصيرة، ودخلتُ كهفًا معتمًا.

***

تنثال الذكريات مهتزة مترددة، ثم ما تلبث أن تحكم هجومها على ذهني الذي لا يصدُّ ولا يرفض. ذكرياتي بلا ألوان، مجرّد اصفرار باهت يشبه أطراف صورة قديمة تهترئ وتتعفَّن. يختار الناس ذكرياتهم بعناية، ينتقون بحرص ويُحيِّدون ويَنسَون ما لا يرغبون فيه، على العكس مني؛ أترك الباب مواربًا لذكريات لئيمة كريهة، قد لا يكون عقلي حرًّا باختياراته لما أنساه أو أتذكره، لعلّ شيطانًا ينتقي لي ويعيد إحياء ما وافق هواه من صور عتيقة لتتجلى أمامي بكل صلفها.

خيمة مثل وكر حيوان مفترس، هادئة مخادعة بانتظار فجيعة ما، يهمر الوحش فيّ ليلًا في سكون الخيمة، وأستوي طفلًا سَكوتًا متأمِّلًا إذا طلع النهار. تتربَّع جدَّتي على قماش مهترئ في قلب الخيمة، صامتة وحيدة،

وعند طرف سبخة الطين تُقرفص أمي وتنتف ريش الدجاجة. ومع كلِّ نتفةٍ تفصل الريشة عن الجلد، تفوح رائحة اللحم الأبيض ودبق حمضي نتن خفيف. أُقعي في موقعي أراقبها حتى تنتهي، ثم أجمع الريش كما تأمرني، أضعه في كيس مبتعدًا عن الخيمة مسافة لا تقل عن نصف كيلومتر للوصول إلى الحفرة التي نُلقي فيها مخلَّفات بيتنا الذي تعبث الأرياح فيه. أُحكم إغلاق الكيس وأرميه بعد استعارة جناح الدجاجة من محتوياته الزنخة، أعود بالجناح في جيبي، أرعاه حتى تفوح منه رائحة العطن خفيفةً لا تصل إلى أنف أمي، ناهيك عن أبي المشبَع أنفه بعبق الهيل وفوح القهوة التي يحمّصها ويسحنها ويغليها. يتحوَّل جناح الدجاجة العفن إلى فخٍّ عبقريٍّ يصطاد القطط والكلاب الشاردة، أتركه عند طرف وتد الخيمة من الخارج ينفث شذاه! تقع القطط المشردة والكلاب الهائمة أسيرة جوعها، تُقبِل متلصِّصة على مهل، تتفحَّص بعيونها الدقيقةِ الأرجاءَ ولا ترى أحدًا. بعض الكلاب النبيهة لا يخدعها المشهد؛ إذ ترصد وجودي من رائحة عَرَقي التي تطغى على رائحة الجناح الميت، لكنَّ الجوع يشوّش الإشارات التي تصل إلى هذه المخلوقات المرتبكة، يجازف قِطٌّ عجوز بتقدّم الجائعين، يشمُّ كأنَّه يتحقَّق، يحاذي الخيمة، يكوّر جسده ويحني رأسه في نيّة لالتهام الطعام المتروك في العراء. عندها، أبرز مثل برق سريع، أُسدِّد ضربتي على نقرة الرأس تمامًا، فيتفصَّد دمه ويتخبَّط جسدُه بالتراب، تفزع بقية القطط هاربة

من موت أكيد فأطاردها مجهِزًا على صغيرها وضعيفها، غيرَ عابئ بصياح أمي وتحذيرها من غضب الجنِّ الذين يسكنون أجساد القطط، أو صراخ والدي وشتائمه:

«يا حيوان، هاي أرواح، خاف الله».

تشير أصابع الاتّهام نحوي حين يجدون عددًا من الكلاب السائبة التي أعاقها عَرَجٌ أو صِغر سِنٍّ وقلَّة خبرة عن الهروب؛ أشلاء ممزقة مدماة في الصباح كأنَّ حيوانًا مفترسًا هشَّم أجسادها، يسكن عيونها المفجوعة ذعرُ ما رأت وعانت في لحظاتها الأخيرة. لا يُصدّق أبي أن هناك ضبعًا هائمًا في الأرجاء، دليله أن الحيوانات النافقة لم تؤكل ولكنها قُتلت غدرًا. ينظر نحوي متوجّسًا، محتارًا بلا دليل، أبتسم بخبث، لا يعوز المرء سنوات طويلة ليتدرب كيف يصير حقيرًا.

تحرّر أمي في الصباحات الباكرة الباردة الشَّاتَين المحبوستَين في حوطة من أعواد خشبية وراء بيت الشعر. لا تَملُّ من حثّي على رعيهما لساعة، وتضمُّ إليهما شياهًا أخرى لا يمكن إحصاؤها لكثرة ما تتوالد؛ هذه أغنام ابن العم، الشيخ. وكما كل صباح، أرفض رعيَها، لتقوم أمي بالمهمة أو والدي بالتناوب، فالشياهُ تخافني، تُصاب بالجنون لدى اقترابي منها، ترفس بعضها بعضًا وتُطلق أصواتًا مرتجفة كأنها تُذبَح، وقد تركض في المرعى في اتجاهات متباعدة وتضيع. الغنم تكرهني، تلك حجة فائقة الأهمية كي لا أتجوّل في المراعي القريبة مصطحبًا شياهَ الشيخ المكتنزة

وشاتَينا النحيلتَين اللتين تتميزان بسهولة بذَنَبَتَيْنِ هزيلتَين وسط مُدلَّلات الشيخ التي ترعى بذَنَباتٍ متراقصة مبتهجة. هل تُفسح الشِّياه الشرهة لهما المجال لترعيا العلتَ والخبيزة والحشائش التي أنبتها الله في السفوح، أم أنهما تُتركان لما تبقى من أتربة تختلط ببقايا الرعي الجائر؟ وإلّا كيف لا تفارق هاتين الشاتين نحولهما، بينما تسمنُ الأغنام والعجول وسائر المواشي الأخرى؟!

شروخ في الروح وكرامة مدماة لا تُسلِمُني إلى موت نهائي، أشياء صغيرة لا قيمة لها تنغرز في ذاكرتي كمشط مزارع يحشُّ حشائش الأرض الفائضة محدثًا أثلامًا عميقة، أشياء لا أملك البوح بها لنفسي ولا لسواي، وليس هناك سواي أبوح له! ماذا يمكنني القول عن نعلِ والدي الجلديِّ المهترئ الذي يتركه عند باب مجلس الشيخ صيفًا وشتاءً، ليلج حافيًا وقد طفحت على وجهه ابتسامة ودودة تُغلّف ذِلَّته وهو يلتقي الشيخ. تلتصق الضحكة البلهاء في شفتَي أبي؛ منصور، المنفرجتين كأنَّهما بعض ملامحه. خلف البلاهة بكاء كتيم، في وجه أبي هزيمة يخاتلها باسمه منصور، والدي أكثر شبهًا بتيس عجوز هزيل، يضحك كالمعتوه بينما تنحني أمي بمقدار وهي تجتاز باب بيت الشيخ الخلفي حيث القدور والأفران وحجارة اللَّبَن المجفف (الجميد) ينتظر كفّيها الخشنتين لتَمْرُسَه قبل طبخه ليكون منسفًا.

تشبه أمي سنجابًا صغيرًا بوجهها الطويل ووجنتيها المتغضِّنتين كثمرة جافة، ورغم أنها حمقاء إلا أنَّها علَّمتني درسًا بليغًا في ملاقط الغسيل الخشبية. كانت تمدُّ حبلًا بين وَتَدَين، تعلّق عليه الثياب المغسولة لتجف في الهواء والشمس، تثبتها بالملاقط الكبيرة، فإذا جمعت الثياب تركت فوق الحبل بعض الملاقط، ووضعت ما تبقّى في سلة صغيرة قشية تحفظها في صرَّة قرب الموقد، ولفَّت عددًا منها بعناية في صرَّة دسَّتها تحت الفرشات الصوفية المرصوصة جانبًا. أعثر في قلب طنجرة نحاسية مسودَّة القاع على ملاقط أيضًا، تقول أمي بثقة الخبيرة:

«الملاقط تضيع، لزوم نخبيها بأكثر من مطرح».

تَفقِدُ خيل الشيخ رشدها حين أقترب وأبي من الإسطبل، أقيس المسافة الآمنة بيننا وأتوقف، استند إلى عقبيَّ عابثًا بالأتربة حولي، ترفعني سلسلتي الفقرية القوية في جلستي. يواجه وجهي الشمس، وقد أتحايل على سياطها بطأطأة خفيفة وكأني أبحث في التراب عن سرٍّ ما، بينما يتركني أبي دون استفسار، يعرف حساسية الخيل والكلاب منّي، يسير بهمّة ناسيًا أمري، لاحقًا بالسائس ليقود معه الخيل إلى الإسطبل. ليست هذه من مهام أبي لكنه يُقدّم خدماته كيفما اتفق، يربت الشيخ على جِيدِ فرسه فتتوقَّف عن الحمحمة وتنقاد وراء السائس، يتنبَّه الشيخ لي مقعيًا بعيدًا تحت السماء تلهب سياط الشمس فروة رأسي، ينظر إلى أبي شزرًا، ويعاتبه بصوته الأجش:

«أنت حمار يا منصور؟! ولدك أوس هذا قرَّبن شواربه يخُطّن، كيف تاركه هيك بلا مدرسة!».

يتمتم أبي مرتبكًا:

«أوس؟ وشو بده يسوي بالمدرسة؟».

«أنت حمار يا منصور، كيف شو بده يسوي؟ بقرا وبكتب، بِتنجَّر، بصير بني آدم، مش شايف الدنيا حواليك؟ هو ظل حدا بلا مدرسة؟ شايف الديمقراطية اللي بقولوا عليها، بكره غير تقلب عاليها واطيها، أي إحنا الشيوخ لو ما تعلموا أولادنا بنندس من أولاد الرعيان والفلاحين اللي بحملوا شهادات، كيف أنت يا مسخم؟ ما غير حط عقلك براسك وودي الولد المدرسة».

«قولتك؟ أوديه؟».

«قولتي».

ينخر صوتهما جلدي، فأكرههما.

قُبلت في مدرسة البلدة بتدخُّل من الشيخ شخصيًّا وأنا في التاسعة من عمري. كنت الفتى الأكبر في صفّي، يُحسَب الأولاد في مثل عمري على الطفولة، ولكن الشمس شوت وجهي، والدروب الوعرة على ضفاف الهضاب المحيطة بالأرض الممتدّة صقلت عراقيب قدمي وعضلات ساعدي، كما نحتت بعض ملامح المراهقين في فكي وذقني فبدوت أكبر عمرًا. وجهُ كايد، ابن الشيخ، أسمر منمنم بعينين مكحولتين ضاحكتين،

وجهُ طفل سعيد موحَّد اللون كأنه لم يعرف الشمس، يتأرجح هو ومعظم الصبيان في الفصل على سُلَّم السنوات السبع. منهم من تعلم مبادئ القراءة والعد والكتابة في رياض الأطفال التي لم أعرفها، وكلهم نحيلو الأجساد يحدّقون بي وجلين، فقد فقتُهم طولًا وجهامة وتجهُّمًا. اكتشف الملاعين الصغار بسرعة أنهم فاقوني تعلمًا، مكَّنهم ذلك من استغلال الهوة لنسيان هلعهم من الفتى الكبير. قبعت في آخر الفصل، صامتًا متحفّزًا باهت الشعر مضطرب الشعور، أتمتم متظاهرًا بإلقاء التحية إذا مرَّ بي كايد. إنه ولد مشاغب ضحوك، يُحبّه أساتذة المدرسة أو يرون هالة والده المهيبة تحيط به، يرافقه الصبية بانسجام تامٍّ فرحين كأنهم يلتهمون سميدًا محلّى بالسكر، يلتفون حوله باحتفاء وحرص مانعين دخول الفتى الكبير إلى حلقتهم الضيقة وكل حلقة أخرى في الفصل وخارجه.

لكل امرئ في طفولته ومراهقته عصبة، رفاق سوء، أو صحبة طيبون، يقضي معهم أوقاتًا ممتعة وعصيبة تُفجّر طاقاته الحبيسة. لم أعش تجربة كهذه، كبرت وحيدًا بلا إخوة. عقمَتْ أمي أم عَجِزَ أبي؟! ليس ذلك مهمًّا حقًّا، النتيجة أنني وحيد مثل خشبة شوكية طلعت في الصحراء وحيدة بلا ماء. لقد شكَّل ابن الشيخ وعصبته حصاة خشنة في قعر حذائي المهترئ، يقود كايد الأولاد لاعبًا دور الأسد، يحفُّون به كلابًا طليقة مسعورة وكأنما نبتت لهم أذيال تتراقص خلفهم وهم يهمرون ويخنشرون، ترتبك أقدامهم وتتراجع خطواتهم كما لو كانوا يخشون الاقتراب مني، ظانين

مسًّا أصابني أو شيطانًا تقمَّصني. في تلك الأجواء الصحراوية كان ابن الشيخ يتدرَّب على أبجديات العشائرية وزهوها وغطرستها، بينما أنا متروك لدروس في الوحدة والعزلة، يتضخّم في صدري الأجوف عواء متفرد وفريد.

لعل ابن الشيخ كايد حرَّضَ الأولاد ضدّي راكلًا بي إلى الهامش، أو أن موقع أبي منصور همَّشَني! يقف أبي في طرف المضافة يُحرّك الهواء فوق الجمر ليبقيه مشتعلًا، مراقبًا فوران القهوة، حريصًا على نظافة الفناجين. بين السببين أميل إلى اتهام ابن الشيخ بالجفوة التي تشيع في وجوه الصغار. أثق بحدسي وأكتمه، أكتفي به جمرًا في صدري قابلًا للاشتعال في أيّ لحظة سانحة. يصير الحسد غيظًا وينمو كرهًا، ولا أجد لي متنفّسًا سوى دفن عقلي في تلافيف الكتب. انصرفتُ إلى هدف بيِّنٍ هو التفوق الدراسي. نجاتي الحقيقية هي كتبي، أهرب إليها وأحتمي بها من غول الساعات المدرسية الطويلة، ألتهمها حفظًا وفهمًا، أشربها وأتجشّؤها في أوراق الامتحانات. وفي وقت قصير أحاذي الصغار الذين تعلَّموا مبادئ القراءة والكتابة قبلي ثم أتجاوزهم بأشواط. أحرزت نتائج ملفتة، وتراجَعَت ضحكات السخرية والهمسات والمداعبات الساخرة والألفاظ المعيبة، حلَّ محلَّها تهيُّب وتقدير وحسد خفي، رغم أني ما زلت أتعرَّق بشدة صيفًا وشتاءً ويجفّ عرقي على جسدي مشكّلًا طبقة خثرة الرائحة، تكشطها أمي عند الحمام. أرجَعَ الأولاد قدراتي العلمية

المتطورة إلى كبر جسدي، مع ذلك لم أصبح المفضل عند أساتذتي، هناك خيط رفيع حال دون ذلك، فهم مولعون بالصغير الجميل المشاغب كايد، كما أنهم لم يصدّقوا ولعي بالعلم بقدر ما أحسوا أني ألهث على دربه كأني ملاحَق؛ فأنا لم أُبدِ شغفًا أو متعة، ولم يتجاوب عقلي بإبداع أو تحليل ملفت، كأني آلة تجترّ الكتب، بلا روح، ظلَّ حضوري ثقيلًا مثل جبل من رصاص. ولأني لم أكن صغيرًا كرفاق الصف، بل ناضجًا كفاية لأدرك الهباء الذي يتحكم بالعالم، والذي يمنح الأشياء أهميتها العالية، لم أرجُ من الدراسة أن تصل بي إلى آفاق بعيدة، اكتفيت بها طريقة للحصول على قبولٍ من أزدريهم. في أعماقي لم يكن هذا الأمر أيضًا يعني لي كثيرًا، ولكني لستُ مضطرا لكشف مشاعري للآخرين.

من تجمُّع عشوائي في جبل عالٍ، صخورُهُ نافرة وحصاه جارحة، أقطع كل صباح الطريق إلى مدرسة البلدة في السهل. يخرج أطفال التجمّع معًا؛ من بيوت الشَّعَرِ المشدودة بوبر الجمال، من الكهوف العميقة، ومن البيوت الطينية المحاطة بالبساتين الحبلى بالخضار والفاكهة، ومن البيوت الحجرية المزيَّنة بالقرميد والمسوَّرة بعناية تخفي وراءها أشجار الورد وعرائش الياسمين ودوالي العنب وكلابًا بوليسية شرسة. يخرج الصغار من كلِّ هذه الأبواب المختلفة في علوّها ومتانتها ونقوشها، يخرجون في وقت واحد يضحكون بحبور رغم أن بعضهم لم يتناول إفطارًا غنيًّا بالحليب والبيض كما فعل بقية الرفاق. أمي بوجه السنجاب

المذعور تكتفي ببلِّ كِسَر الخبز الجافَّة بالشاي المحلى باقتصاد وخبرة، أخرج شادًّا حقيبتي القماشية التي خاطتها أمي بالهمَّة نفسها التي رممت بها الفرشات المهترئة وشدَّت بها أطراف خيمة بيت الشعر. يسير الأولاد معًا، يتقافزون كصغار الماعز فوق العقبات، وأتلكَّأ لأحفظ بيننا مسافة كافية، تتجمَّع رؤوسهم الصغيرة الحليقة كأنهم يتبادلون سرًّا، وأشكُّ بأنهم يتهامسون ساخرين مني. ليس هناك سبب حقيقي للسخرية حين تكون لنا الأحذية المثلومة نفسها والحقائب المخيطة والبناطيل المهترئة. لكن الركب يتقدم إلى حي المقتدرين ويبدأ بضم فتية متوردي الوجوه ينتعلون أحذية رياضية سليمة وبناطيل لم تبهت، يحملون على ظهورهم حقائب جلدية مزركشة. تستدرج المسافة الفاصلة بيننا النفوس الشريرة ليزداد التَّهامس بينها، يُطلُّ ابن الشيخ بعينين مكحولَتين ووجه شديد الوسامة حدَّ الإهانة كأنه رأس حصان جامح غرور.

أركل طبقة التراب الخفيفة المتجمَّعة بين فجوات الحجارة مثيرًا غبارًا خفيفًا، أسبقهم أحيانًا، فإذا ما تقدَّموا متعثرين بجذع شجرة ميت أقسموا أني وضعت العراقيل في طريقهم، وإذا ما ظهرتُ من الناحية الأخرى بمشيتي المتباطئة شكّوا بيقينهم السابق شاعرين بوخزات بسيطة في ضمائرهم البريئة. أُفضّل التأخر عنهم، عندما يختفون في المنحدر تمامًا وقبل الوصول إلى امتداد السهل الأخضر الرحب، أقف وحيدًا عند طرف الصخرة المدبَّب الحاد، أرفع رأسي عاليًا، أحدّق في عين الشمس متحدّيًا

ثم أغمض جفنيَّ وأُطلق عواءً متحشرجًا يتحوَّل إلى صفير مفزع في الهواء، فيتراكض الصبية في أسفل المنحدر نحو المدرسة محتمين بجدرانها من ذئب يتربّص بهم في الأعلى. أُتبع عوائي عادة بضحكة مكتومة خوف أن تردِّدها الريح صدًى يكشف لعبتي المحببة أمام الطلبة الجبناء.

ينتشر الأولاد في الساحة الترابية بانتهاء اليوم المدرسي، يتجمَّعون بعيدًا عن طريقي إذا مررت، يصمتون وأنا أعبر الساحة خارجًا إلى فضاء البلدة، مسرعًا لأتفادى سائق ابن الشيخ ودعوته الكريمة المحتقرة لركوب المرسيدس السوداء ذات الزجاج المظلَّل.

تنطلق المرسيدس مثيرة عجاجًا كثيرًا وراءها وحولها، لافحة الأولاد الواقفين بأغبرة الشارع الترابي، فينفرطون مبتعدين مغطّين وجوهَهم بكتبهم وأذرعهم. صفعة هذا الهواء المشبع بالأتربة إهانة شخصية لي، أبتعد قدر المستطاع متفاديًا انفجار مرجل الغضب الذي يغلي في صدري.

التحقَ كايد بمدرسة خاصة في العاصمة في المرحلة الإعدادية، تاركًا الفتية رفاق الطفولة الذين لم يتمكَّن آباؤهم من توفير المزايا لهم قابعين في المدرسة الحكومية التي قشَّرَت الشمسُ والريحُ دهانَ جدرانها، وظلَّ زجاج النوافذ الذي كَسَرته كراتٌ طائرةٌ على حاله لسنوات. في كل عام يشيخ بناء المدرسة ويزداد الطلبة طولًا ونحولًا وخوفًا، فقد اكتشفوا فقرهم للتوّ، وأيقنوا أن العالم خارجهم مختلف تمامًا. مع ذلك ظلَّ ابن

الشيخ حريصًا على المرور اليومي بنا في ذهابه وإيابه، كأنه لا يعرف تميزه إلا بنا، يلوّح بذراعه عبر النافذة، أو ينفحنا تحية الغبار المنبعث خلف عجلات سيارته كما الزوبعة الصغيرة. كان من الممكن أن يُصلح الزمان فتق الطفولة المرير بيننا؛ ابن الشيخ وابن صبّاب القهوة، لولا ما وقع في المساء نفسه الذي تُوفِّيت فيه الجدَّة أم منصور.

ناحت أمي ولطمت خدَّيها مؤكدة أن الجدة التي صارت كمشة عظام وذاكرة معطوبة تُحتَضَر. لكزتني وأنا مُنكبٌّ على كتابي. ولولَتْ وأرغمتني على استدعاء والدي من مضافة الشيخ. أغلقتُ الكتاب متبرّمًا منصاعًا لمخاوفها، رغم أنني لم ألحظ اختلافًا يذكر في حشرجات الجدة التي تُطلقها منذ يومين.

بدت المضافة غريبة عنّي، فلم أدخلها منذ أربعة أعوام أو يزيد، وحده أبي يربض في موقعه، منهمكًا كعادته في تجفيف الفناجين ويحوم حول موقد الفحم. كنت قد تقدَّمتُ خطوة إلى الأمام حين دَفَعَت خبطة قويّة كتفي من الخلف، التفتُّ لأصير مواجهًا تمامًا لوجه كايد وقد لحقني طولًا، بات شابًّا رياضيًّا منذ اقتنى السيارة الرياضية التي تقف بصورة مواربة أمام المضافة. فقدتُّ تركيزي لثوانٍ حول سبب قدومي، كنت أفكّر كيف تمكَّن كايد، وهو غرٌّ صغير لم يُنهِ عامه السادس عشر، من قيادة سيارته. لم أُلق التحية ردًّا على الكف الثقيلة التي نالت كتفي، ولا أعرف سببًا يجعل صوت كايد ينطلق متهكمًا مبديًا فرحًا لا مبرر له. صاح:

«هاذ أنت؟ أوس! والله ما عرفتك».

لم أرد، وواصل كايد:

«ها؟ بعدك شاطر بالمدرسة؟».

صمتُّ مبتلعًا ريقي، وقطع أبي المجلس الطويل العريض متهلِّل الأسارير مهرولًا، إلا أنه لم يهرول للقائي، ولكن باتجاه الشاب الوسيم الأسمر الساخر، وقف بيننا غير عابئ بالسبب الذي دفعني للحاق به، كأنه لا يراني:

«مرحبًا بالشيخ الصغير، هلا.. هلا.. عمي الشيخ كايد.. آه أوس شاطر مثل ما هو.. بعجبك».

منذ متى يُسمّي أبي الولد الصغير عمّي الشيخ؟!

قهقه ابن الشيخ ساخرًا وهو يخطو داخل المضافة وصوته ينخز روحي:

«بعجبني؟ ليش يعني؟ لو إله أخت كانت بتعجبني.. ليش بالله بده هو يعجبني؟ شايفني! لا سمح الله..».

زجر الشيخ ولده مقاطعًا:

«بطِّلْ حكي ماسخ يا ولد».

ضحك منصور ببلاهة وهو يتبعه:

«دشره.. الله يسلمه شيخنا ابن شيخنا.. بِمزح.. بِمزح.. هههههه».

لـم يضـحك أحـدٌ سـوى منصـور الـذي بانـت أسـنانه المنخـورة ولثّتـه الداكنة. استدرت حانقًا مُخفيًا غضبي منصرفًا وقد نسيت إخبار أبي أن أمَّه تُحتَضَر.

يكسو وجهَ الشيخ زهوٌ مُقنَّعٌ بالهيبة والدَّماثة والحكمة، كأنه قدير يمدُّ يده فوق العالمين. لم يكن هناك خير ظاهر لي كما للآخرين الـذين تلهـج ألسـنتهم عرفانًـا لشـيخنا، بـل وراء الهيبـة والجـود كـان يقبـع الشـرُّ، أراه بوضوح، ولا أجرؤ أن أبوح، فقد أصير الشريرَ في أعينهم.

رَحَلَت الجدّة، ومضى عامان على تلك الحادثة لم ألتقِ كايد خلالهما، لكنْ لمحتُه يدور بسيارته مقابل المدرسة أحيانًا، إلّا أنَّ الحادثة مرَّت كأن شيئًا لم يقع، فما زالت خيمتنا في مهبّ الريح محاطة بالأتربة، ولم تتوقف أمي عن التسلل إلى زوجة الشيخ تُعينُها في مَرْسِ الجميد وغسيل الأواني الضخمة، ولا يُفوّتُ أبي يومًا دون إعداد قهوة مضافة الشيخ.

تنمو الأشجار الخضراء كما هي عادتها، وتتخذ البيوتُ المنخفضةُ وتلـك العاليـةُ أمكنتَهـا المعهـودة بأبوابهـا ونوافـذها، وتتقلَّـب الفصـولُ الأربعة في مواعيدها. تمضي الحياة وكأنَّ الجرح الذي شقَّ كرامتي لا أهمية له، لم يكن لي أخت أثأر لشرفها في ما قيلَ يومَها، فالأخوات يمثلن شرف الرجل وعرضه، وقد وَقَرَ في قلبي أن الكلمات نالت من عِرضي وكرامتي، ولكنَّ يدي مشلولة عن الثأر لتلك الأخت التي لم تولد قَط.

أحرزتُ سبقًا حقيقيًّا في الدراسة الثانوية، لكنَّ الاحتفالات كانت في منزل الشيخ الفاره بنجاح ولده الذي لم يقاربْ نجاحي. صفّ كايد زجاجات الويسكي وتسلّى بإطلاق النار عليها مطيّرًا الشظايا خالعًا قلوب الصبية الناظرين بإعجاب شديد، سارقًا نظرات الإعجاب وآهات الصبايا اللّواتي يسترقن نظرات ولهى مبهورات بوسامته الفائقة، بينما واصلتُ نبش الأرض بعود شجرة قصير، محرّكًا فكي يمينًا ويسارًا في محاولة للتَّخلّص من الضغط الذي أحدثه صوت الرصاصة فبقي يصفر في سمعي. لا يحقُّ لي إطلاق الرصاص للتسلّي بدماء زجاجة الويسكي، ولا أعرف حقًّا كيف أستمتع بحفلات الشواء الماجنة، ولن يُهرَع الناس لتهنئة أبي بنجاحي الباهر. من يأبه للأكتاف المنحنية ككتفي أبي؟ الفقراء الضعفاء أنفار لا حاجة للعالم بهم. هبْ ريحًا اقتلعتنا وخيمتنا، من يأبه لو بدَّدَتنا على تراب مادبا الأحمر؟ أو أسفلت الشارع العريض الذي يَمرُّ قريبًا من المدينة ذاهبًا إلى المطار، حيث لا بد هناك من خلاص مختلف، قد يمكّنني من الفرار من حياتي تلك يومًا؟

تحدَّث الشيخ بتعالٍ عن سفر كايد المنتظر إلى لندن، وكنت أتوقع لنفسي مصيرًا واضح المعالم. سأذهب إلى العاصمة، ألتحق بالجامعة الأردنية على مَكرُمَة أبناء العشائر أو درجاتي المدرسية المرتفعة. قد تُخفِّف عمّان التي لا يعرفني فيها أحد بعض غضبي، وسأتفوَّق مجددًا في جامعتها. لكنَّ والدي الذي انحنى ظهره واشتدَّ بياض شعره، والذي لم

يكن يجد جدوى من التحاقي بالمدرسة منذ سنوات فَقَدَ رشدَه. ارتعد حنقًا، لام حظه وواقعه، وهو أمر لم تعهده أمي طوال حياتهما الزوجية التي هي بعمر ولدهما الوحيد. لا تتذكر زمنًا غار فيه صبّاب القهوة من ابن الشيخ أو حَسَدَه لما يحظى به من عزٍّ ورفاه. باتَ كأنَّ به حمى، لا يأكل ولا يشرب، بدا مهمومًا يفكّر بحلول، رجل يكتشف فجأة عجزه وقهره وأبوَّته ومسؤوليته عن مستقبل ابنه. كان غاضبًا وقد أيقن أني وإن كنت جلفًا غامضًا، إلا أنني أستحق فرصة موازية لما يحصل عليه سواي، بالتحديد، لما يحصل عليه ابن الشيخ.

لم يفصح أبي عن قهره أمام الشيخ، وارى حسده بضعف وذِلَّة اعتادهما، مرتعشًا توسَّل للشيخ تدبير فرصة لولده الذي حاز مجموعًا مشرّفًا. ضحك الشيخ متعاليًا:

«لندن ما فيها واسطات يا منصور».

«ويش فيها لعاد؟».

«مجموع مليح، ونيرات كثيرة».

«موجود.. موجود».

كيف؟ تعلَّق السؤال في مضافة الشيخ، تكفّلتُ أنا بالتفوق الدراسي، كيف سيتكفّل منصور بالقروش؟ وصل صبّاب القهوة وزوجه إلى آخر العمر ولم يعد مهمًّا أن يكنز للزمن وغدره. أخيرًا أفصح الفقير الضعيف عن كنز ظلّ يخفيه عمرًا ولم يستثمره، إنها أرضه القاحلة التي تُزنِّر مادبا في

خاصرتها مجاورة أراضي كبار القوم. استنكر الشيخ بيع الأرض، قال له إنها مثل العرض، هي ضمانة الإنسان في أوطان قد تضيع، لكنَّ منصور لم يأخذ بالنصيحة، صنّفها حسدًا وغيرة. لقد وقف بنفسه على صفقات كثيرة أبرمها الشيخ ليبيع من أرضه ويعيش متوجًا متمتعًا بالمال والسطوة، فما عليه إن باع هو أرضه من أجل وحيده الذي سينتشله من الفقر والعوز، ويقفز إلى طبقات رجال العلم والوظائف المتمكّنين؟ ظلَّ يردد: «سيعود لنا من هناك رجلًا»، كأني لم أُحسَب على خانة الرجال من قبل، ولا بد من لندن لتكتمل رجولتي. هكذا راح المشترون يطووون الأرض الممتدة غرب أرض الشيخ، كل تلك البدد لمنصور، وقد حان أوان بيعها وإرسال الولد إلى لندن البعيدة.

يحتم عليّ الظاهر الامتنان لأبي من أجل موقفه الشجاع الوحيد في عمره كله، لكني لم أصدق النوايا الأبوية المعطاءة المفاجئة. تفجَّرَ ينبوع من الكراهية صافعًا وجهي بقسوة.

فجعني امتداد الأرض في سهلٍ توشحه الخضرة تلقائيًّا في الربيع، ويتشقق ترابه بقية العام ليشبه وجنتي والدي اللتين تفنّن العمر في تشطيبهما. كنت أعرف أن بعض هذه البيداء تخصّنا، أما أن تكون كل هذه المساحة الممتدة إلى ما وراء قصر الشيخ لنا، فهذا يُعلن عن رجل حقير بخيل حرم أهله التمتّعَ بمال مخفيٍّ تحت التراب الجاف. لقد ركضت خلفه على تلك الأراضي الشاسعة مثل جرو تائه، ولم أعِ يومًا أنه يملكها،

وما ظننت أنَّ ترابها العاقر الذي لم يعرف يومًا ضربة فأس يمكن أن يتحوّل بمعجزة إلى نقود. ظننتُها بورًا لا يخصّنا، وعندما لا يزرع المرء شجرة ولا يُنبت شتلة بندورة أو سنبلة، فهل ستطعمه الأرض وتسقيه؟ ومنصور كان منشغلًا باحمرار الجمرات في منقل الشيخ، وبدلال القهوة والفناجين التي ترنُّ بين أنامله، يزجرني أحيانًا إذا سهوتُ عن غسل الفناجين بالسرعة المطلوبة. انكشف هذا الخانع عن إقطاعيٍّ خفيٍّ استمرأ الفقر وأطعمنا إياه جوعًا، لم يشتَهِ تغيير حاله ببعض الحيلة أو التصرف بما يملك. اجتاحت كياني مرارة عارمة. اختنقت متخيّلًا كيف كان للنقود لو توفرت في طفولتي التعيسة أن تُخلِّصني من وضاعتي، فأنمو كنبتة الحقل مخلوقًا وادعًا وارفًا يتبعني ظلي متعاطفًا محبًّا واثقًا من خطاي، مع حذاء سليم وحقيبة جلدية مزركشة؟ ظلَّ السر خبيئًا والأرض متروكة للشُّحّ والجفاف حتى وقوفي على تخوم الجامعة، تركني لصَغاري والحسد يأكل قلبي. وظلَّ ظهر منصور راعي الدلة والفنجان ينحني ذِلَّة. فكرة أنني سأطير بعيدًا عن تلك البوادي القاسية أُيمِّم صوب الضباب، وفرحة التحاقي بالجامعة التي حظي بها ابن الشيخ، لم تُخفِّفا من غصَّة المرارة السوداء في حلقي وقلبي. لكنني بالبراعة المعتادة تمكَّنتُ من إخفاء كراهية لن يمحوها زمن قادم. ضرب هوس الرحيل أعماقي، اشتدَّ فَرِحي به، ابتلعت الصفعة محتفظًا بها ليومٍ يأتي في مقبل الحياة، كلنا تآمرنا

لأقفز تلك القفزة المريعة، من ذبّاح القطط والكلاب السائبة إلى طالب في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية.

تظاهرتُ بالانشغال استعدادًا للسفر، كنتُ باردًا صلبًا كما لو أنني وتدٌ ملقى في حفرة من صقيع.

بنى أبي بيتًا ريفيًّا طينيًّا في البقعة الصغيرة التي بقيت لديه بعد بيع الأرض، وسلَّمني رُزمة حِرتُ كيف أمسك بها، ولم يفارقه انحناؤه وخنوعه في مجلس الشيخ الذي أكمل معروفه بفتح الأبواب لدخولي الكلية الرائدة التي يذهب إليها ولده. ركلتُ قبولي الجامعي المحلي بقدمي، واستخرجتُ جواز سفر يحمل انتمائي إلى اسم القبيلة الكبيرة (البيرق). لم أعد مجرد ابن صبّاب قهوة، بل أنا حجر لامع في تشكيل فسيفساء العشيرة الصحراوية العتيقة العريقة. ابتعت حذاءين وبنطالين وقميصين ومعطفًا ثقيلًا، كأني وُلدتُ من جديد. تَرَكَتْ حياتي السابقة ندوبًا بحجم القمر في روحي، سأظل أعالجها في كل يوم مقبل من حياتي دون جدوى. إنه إرث الكراهية والصدمة والملامة المُرَّة التي اندلقت. أحاول نسيان أنني أتذكر، أدَّعي قدرتي الفذَّة على إحكام إغلاق الكُوّات التي يتسلَّل منها الوجع، ومعالجة احتمالات الاختراق والتسيّب للأفكار المريرة. أُغلق بوابة الماضي خلفي بإحكام، رغم أني لم أتوقَّف عن التعرّق، ولم أُعنَ كثيرًا بإزالة الطبقة الخثرة عن جسدي، أخاف إذا أزلت عن جلدي غشاء البروتين والغبار أن أنكشف عاريًا.

(2)

صفّق ركاب الطائرة مع ملامسة العجلات لأرض المطار، تحية بلهاء لقائد الرحلة الذي هبط بسلام، يتحايلون بها على ارتجاج يحدث في صدورهم عند النقطة الفاصلة بين الأرض والسماء. ما زلتُ أُحايل شعوري بالاهتزاز الذي لم أتخلَّص منه على كثرة ما أقلعت وهبطت.

خرجت إنجلترا من الاتحاد الأوروبي منذ يومين فقط، ومضى عشرون عامًا على لقائي الأول بالدولة الغامضة والمدينة المبهمة. لم يغيّر مرور الزمن مذاق لندن: دَبِقٌ باردٌ مر. ابتلعتُ ريقي وأنا ألج مطار هيثرو. يُشيع المطار العتيق الضخم كآبة وأتربة كما لو كان مهجورًا، تتحرَّك في أرجائه قِلَّة من العاملين والمسافرين بتثاقل وصمت ووجوه بيضاء باهتة. لم تكن هذه حاله حين نزلته أول مرة، كان كرنفالًا مكتظًّا بالوجوه السمراء والصفراء. رفعتُ كمامتي متأكدًا من إحكامها حول فمي وأنفي، وغابت الكمامات عن وجوه الكثيرين. يبدو أن العالم المتحضر، العالم الأول، لا يُصدّق حكاية الفيروس القاتل! لا إجراءات تتحقَّق من حالة القادمين الصحية. لم يسألني أحد إذا ما كنت أعاني من أيّ أعراض مريبة، ولا قيست درجة حرارة جسدي. إهمال لا يليق بحصافة الإنجليز ودقَّتهم، رغم أن المرض يستشري في إيطاليا وإسبانيا الأوروبيتين. لعلَّ

الإنجليز كعادتهم ربطوا أحصنتهم بعربات الأمريكان، وما دام دونالد ترامب نفى بحماقة خطورة المرض، فإنَّ إليزابيث هزَّت رأسها.

ختمتُ جواز سفري بختم الدخول إلى بريطانيا التي لم تعد عظمى، ولكني سأظلُّ أزورها بدوافع مختلفة.

قادني خط بيكاديلي في قطار أنفاق لندن إلى وسط المدينة، برد قارس لا يأبه بمعطفي الجوخي الثقيل. تملَّكَني شعورٌ شيطانيٌّ بالرّضا؛ إذ كلُّ ما يحيط بي ينبئ عن بؤس حالة الخط العريق بقطاراته وأنفاقه وناسه، ردد عقلي الأغنية بحبور:

London bridge is falling down

London is falling down

dooown

أكره المدينة وأتمناها ركامًا على ركام؟

غادرت قطار الأنفاق الرطب، رميت جسدي المنهك وحقيبتي الصغيرة في تاكسي لندن العجوز، أعرف الطرقات كظاهر كفّي، هي نفسها دونما تغيير، بلا هوية. أو لعلَّ حكمي هذا ترداد خفيّ لما كان يقوله أستاذي عن مدينة لا تنسجم طرزها المعمارية مع كونها عاصمةً لإمبراطورية كانت عظيمة. هي الآن فتات من معالم رومانية وجدران قوطية، ومبانٍ كلاسيكية كئيبة صنعها عصر النهضة الغابر، وأخرى معاصرة غريبة منشقّة عن فضاء المكان، مدينة هرمة تحاول النهوض.

هاجمتني روائح المدينة على الرغم من إغلاق نوافذ المركبة بإحكام، الروائح نفسها التي عبَّأت رئتي وهيجت أعصابي أربع سنوات متتالية: شجرٌ مبتلٌّ وخشبٌ رطبٌ وضبابٌ عفنٌ، ونقصٌ مؤكَّد في كمية الأوكسجين والضوء اللذين يحتاجهما الكائن الحي. في تلك السنوات البعيدة لم أقارن بين ما كان يضيّق أنفاسي وما تركته في بلادي من روائح، لم أحمِلْ نفسي على مغادرة حبس لندن للبحث عن الهواء النقي في ريفها الذي يتغنّون به، أو حول بحيراتها الخلابة. اكتفيت بالمدينة، علقتُ بالضباب والبيوت الكئيبة والباصات الحمراء الطابقية التي تلوّن الفضاء الرمادي للمدينة وهي تعبر في كل الاتجاهات، وبالمكتبات المثقلة بالفن والأدب والفكر الموجع للنفس والتاريخ الزاعق في الطرقات. الآن، ماتت الفتنة وتبدّد سحر الصدمة الأولى، ولم يتبق من لندن إلا رقم هاتف وعنوان لطبيب بارع أودعتُهُ ذاكرةَ هاتفي النقّال.

أسندتُ رأسي إلى ظهر كرسي السيارة متسليًا بمقارنات لا غاية لها ولا تعني مفاضلةً ما. تنشب المدن التي عرفت روائحها في ذاكرتي كأنها تمنعني من ولوج لندن، تنبعث مادبا التي قاطعتها منذ سنوات. البلدة التي لم أطأها بقدمي منذ دفنتُ أبي في ترابها الأحمر الندي تتسيَّد ذهني في نهار لندني. تفوح رائحتها مثل جلد يُشوى في ظهيرة صيف، وأكاد ألمس فضاءها المفتوح على أفقٍ ملوَّنٍ بفداحة بأطياف نارية عند المغيب؛ فجٌّ وقارس بحدة عند الظهر، يتقطر ندى باردًا عذبًا في الصباحات المبكرة.

لم تمنحني مدينتي (مسقط رأسي) اليسير من تلك الغبطة التي توزّعها على العابرين فيها سيّاحًا يرتدون السراويل القصيرة كاشفين عن أرجلهم الشقراء المحمرّة، مؤبدين لحظات بهجتهم بالصور، ولا تفضَّلَتْ عليَّ بالوهم الذي يصيب أبناءها الذين يعملون في مناطق بعيدة، ويزورنها في الإجازات مدفوعين بالحنين ظانّين أنها جنة الأرض، مولعين برائحة الخبز على الصاج وبالتجاعيد على وجوه المسنّين من الرجال والنساء الجالسين عند أبواب بيوتهم الآيلة للسقوط. لا يعتريني الحنين بالتذكّر، فكما أكره لندن لا أحبُّ مادبا. العاصمة عمّان كذلك لم تمنحني هدأة البال ولا الرضا حتى بعد أن حققتُ فيها ثرائي وأشبعتُ جوعي وتمتعتُ بالبيت والمزارع والسيارات الفارهة. ظلَّت أجساد البنايات الحجرية البيضاء في المدينة تخنقني، أجتاز كالصرخة الشوارع الفرعية والأزقة مستجيرًا بالشوارع الرئيسية العريضة فإذا الهواء ميت في ضباب عوادم السيارات المارة. تصطف البيوت في المناطق السكنية الراقية خفيضة رائقة، ليبدو كلُّ عالٍ حولها: الأبراج والفنادق الطويلة والمجمعات التجارية؛ خوازيق تطاول رقعة السماء الزرقاء. تدور الشوارع في طرق التفافية مخترَقةً بالأنفاق الصغيرة والجسور، ممزِّقةً أوصال جبال المدينة، فارشةً ظلها على الأسفلت الحافل بالحفر والمطبات كأنها تعيد رتق الطرقات. تتسارع صور مادبا وعمان هاربة، وتواصل لندن مرورها الكابوسي عبر الزجاج.

اخترق التاكسي منطقة «لوست إند» منعطفًا عند تفريعة شارع ستراند في قلب المدينة، ليواجهني المبنى الشاهق للفندق التاريخي المطل من الجهة الأخرى على نهر التايمز (ذا سافوي)؛ الذي لم أكن أحلم أن تدوس قدمايّ بلاطه المرمري في الماضي. قصر أُعيد شبابه بعد أن شاخ، ليصير فندقًا يشبه لندن المصادرة. وقف الأمير تشارلز قبل تسع سنوات إلى جوار مالكه الجديد القادم من مدن الملح، الملياردير الوليد بن طلال وزوجته الفاتنة يفتتحان الفندق المعجزة في رفاهه وجماله. إرث الإمبراطورية الاستعمارية التي لا تغيب عنها الشمس وما عادت تشرق فوقها. أظنني شامتٌ متشفٍ، وإن كانت المشاعر الساخرة لا تليق بي كبدويٍّ قادم من مدينة حجرية لا ماء يسري في نسغها. أعترف أن تفاصيل الفندق فخمة كما هو جدير به، تحمل اسمَه لافتةٌ بارزة وتحيط بمدخله منحوتات فنية يتقدَّمها القط كاسبر. يلمع المرمر من أرضية البهو والممرات والأعمدة الفخمة، وأكاد ألمح انعكاس طيفي في كريستال مورانو المتلألئ في الثريَّات، غطاء الجدران الحريري الأملس ثم الجناح المنعَّم المتفرد في تفاصيله.

نزلت جناحًا فاخرًا يطلُّ على النهر، خلعت حذائي وجواربي لألمس بقدميّ العاريتين دفء السجاد الوثير الذي يغطّي الأرضية مزركَشًا بخطوط خفيفة بالكاد يمكن تبيّن تفاصيلها. ارتميتُ فوق السرير بكامل أناقتي غاطسًا في غطائه الأبيض الثرّ، ناظرًا مباشرة إلى الستائر المفتوحة

على امتداد النافذة مزنَّرةً بقماش سميك فاخر يميل إلى خضرة باهتة، ويحفل بالورد الأحمر الجميل في محاولة لبثِّ الروح في مشهد يُحتضَر وراءها؛ حيث يمضي التايمز بليدًا عكرًا مفتقدًا موهبة الماء في عكس زرقة السماء التي لم تكن بدورها زرقاء. في منتصفه جسر ودولاب ضخم، لوحة صامتة لجمال ميّت.

منذ عشرين عامًا، كان الدولاب قد اكتمل للتو، وأنا الشاب المضروب بصدمة المدينة وسطوتها. لم أرتَدْ مكانًا سياحيًّا من قبلُ ولا حلمتُ بزيارة مدينةٍ للملاهي، فغرتُ فمي ناظرًا في عين لندن الدائرية التي تعتلي النهر بكبائنها المتحرِّكة، ثم تجاسرتُ على ركوبها راصدًا على بعد كيلومترات ملامح المدينة البارزة: ساعة «بيج بن» الشهيرة، وكاتدرائية سانت بول، وقصر وستمنستر، وقلعة وندسور. ابتلعَتني صدمتي الحضارية إزاء إمبراطورية استعمرت بلادي ووقر في بالي أنها رافعة الحضارة، الآن ومن النافذة المتّسعة للفندق تبدو عين لندن مجرد دولاب ناعورة عملاقٍ معطَّلٍ.

علق ناظري بالدمعات الكريستالية المدهشة المتدلِّية من الثُّريّا. لا يمكن عقد مقارنة بين هذا الجلال الناعم والحزن الذي كانت تبثه اللمبة العارية في حجرة سكن الطلاب التي عشتُ فيها سنواتي الأربع متقوقعًا على صمتي، غارقًا في كتبي قبل عشرين عامًا.

***

كان الشتاء قد رحل حين نزلت للمرة الأولى الجزيرة القابعة بين بحر الشمال والمحيط الأطلسي، في الوقت الذي بدا فيه الآخرون مستمتعين بظهورٍ شحيحٍ متفرِّق للشمس. لم يقِني معطفي الخفيف الذي ظننته ثقيلًا حين ابتعته من شارع السلط في قلب عمان لَسْعةَ صقيع أوروبا اللئيمة. عرفتُ حينَها أنّه لا بدَّ من أن ألتحف بالأصواف والأجواخ الإنجليزية المصمَّمة لتلك الجزيرة الغارقة في ضبابها. سيطرتُ على ملامح وجهي الصارمة كي لا تعكس الألم الناجم عن وخزات البرد المتجولة في أعطافي، وحملت الورقة التي كَتَبَ فيها الشيخ عنوان ولده. سبقني كايد بشهر ملتحقًا بالقسم الحقوقي في كلية لندن، مستأجرًا شقة صغيرة جميلة في شارع بيكاديلي؛ المكان الوحيد الذي أنزل إليه في لندن الغولة الشمطاء.

هناك بشر يولدون أوفر حظًا، يُمنحون بإفاضة من كل شيء: المال والجاه والوسامة والنساء والعلم والعائلة، وهم قادرون على تحويل المنّة إلى كرم، فوق ذلك، محبوبون لخفَّة ظلِّهم وحلاوة أرواحِهم، كأنَّهم يطيرون على الأرض. كايد من هؤلاء الملاعين المحظوظين. لم أعترفْ بالأمر من قبل، أما وقد جمعتنا الغربة في وسط ضبابي فإن بهاءه المقيت بزغ كضياء مفزع يهددني ويطردني. يجيد كايد الإنجليزية كأنه وُلد وعاش على ضفاف التايمز. إنها بركات المدرسة الخاصة التي ارتادها، في حين أني أفهم ما يُقال وأعرف ما يجب أن يقال، لكني خائف، أزن كل كلمة

بتردد وأحاسبها وأقيسها قبل أن تنطق بها شفتاي. بدأتُ رحلتي اللندنية قليل الكلام حذرًا خائفًا. أشعر بثقلي على الأرض ويتعذّر عليَّ المشي بحرية، بينما هو يخبُّ مثل حصان ويُحلِّق كما لو أنه نسر. أبدو قصيرًا إذا سرنا معًا في شوارع المدينة، لا أدانيه طولًا، يرتعش ظلي الباهت على الطريق المُبلَّط، ويمضي ظلُّه برشاقة وحبور أرعنين. كان عليَّ الانفكاك عن الظل قبل أن يبتلعَني.

سأصنع حظي بنفسي، ليست الأرض البور التي باعها منصور ما صنعني، بل موهبتي في تغيير جلدي كحربايـة في الخلاء، سأخمش بأظافري كل تلك المزايا التي حظي بها كايد.

هربتُ من ضيافته الموجعة في الشقة الأنيقة بعد إنهاء إجراءات تسجيلي في الكلية مباشرة. كنت ألهث وأعدو للتَّسريع بها كأنها عشائي الأخير. حين تريد الانقطاع عن الماضي، لا بد من بتر الأشخاص الذين كانوا فيه، الذين يعرفون وجهك الحقيقي إبان كان المخاط جافًّا على فتحتَي أنفك.

انتقلتُ إلى حجرتي الضيقة الخاصَّة في السكن الطلابي الملحق بالكلية، متجاهلًا اتصالات ابن العم صاحب وجه الحصان الكحيل العينين. بعد شهور من الانخراط في الدارسة سئم من متابعتي وتوقَّفَ عن اتصالاته، نتمتم بالتَّحيات الباردة مثل غريبين إذا التقينا في مصادفات متباعدة، ويمضي كلٌّ في طريقه.

تواريت وراء الجدران الرمادية أُلملم وجلي ودهشتي وارتباكي، وأعمل بجدٍّ على كشط جلدي. لم أعد الحافيَ الأشعثَ ابنَ الشمس والأبواب المفتوحة للرّيح، فقدتُ حرية ابن الخيمة مذعورًا؛ تلك التي لم أحسبْها حريةً قبل اليوم، واحتميتُ بكهفٍ قاتمٍ يخصُّني وحدي.

***

ينهمر ماء الدش سخيًّا في حمام الجناح الملكي في فندق «ذا سافوي» فوق جسدي؛ كما لو كان شلّالًا جذلًا أو هِبةً إلهية تُبدِّدُ تعبي بمطر غزير زاحمته ذكريات قدومي الأول إلى لندن. وجرف الماء الدافئ شيئًا من حاضري بوصفي رجلًا ثريًّا يقف عاريًا يغتسل في مكان مترف. تذكرت صابونة أمي تتزحلق من بين أناملها فأقفز من صحن الغسيل هاربًا مصطحبًا أوساخي التي لم أمنحها الفرصةَ لكحتها عن جسدي النحيل. لم أكن سعيدًا بفقر الطفولة، فالفقر لا يرافق السعادة البتة، والأفكار التي تروّج أفراح البسطاء مجرد مسكنات يبلعها الفقراء بانتظام؛ إبر مخدرة تنسيك الجوع مؤقتًا، يبتاعونها من الأغاني والأفلام والخيال ووعود الأديان ومنظومة الأخلاقيات، خرافات لم أُصدّقها يومًا، وحنقتُ بسببها على الفقراء الذين يُصدّقون أوهامهم ويرتضون موقعهم عند هامش العالم؛ منكسرين منتظرين معجزة تحوّل سندريلا إلى أميرة، وتدلُّ علي بابا على كنزه بمجرد أن ينطق: «افتح يا سمسم». لم أكن فقيرًا سعيدًا، لكني أيضًا لم أصبح ثريًّا سعيدًا، تختبئ السعادة اللعينة مني وتراوغني،

مثلما اختبأ الرفاه والخير طويلًا تحت تراب الأرض الجرداء التي امتدّت مسافات شاسعة يمتلكها والدي الفقير، ولم يعرف قيمتها المادية إلا متأخرًا بعد أن نال طعم الفقر من جسدي وترسَّبَ في حلقي مرًّا وحقدًا أسود. أردتُ السعادة بأيِّ ثمن، لكنّها شرِّيرة حقًّا، إنها مثلي، بائعة مخدرات وسلاح، لها شروطها وموازينها الدقيقة، كي تكون سعيدًا فإن طرفًا ما في مكان ما لا بد أن يصير شقيًّا.

***

وجدت نفسي طالبًا غريبًا في المدينة المثخنة بماضيها وحاضرها، عالقًا في ركود اقتصادي يضحكني. ابن الحرمان لا يمكن له أن يقتنع بأن بريطانيا العظمى، وقد فقدت مجدها الاستعماري، تشدُّ الأحزمة! ماذا أسمي الذي عشتُه إذن؟!

تكتظ شوارع لندن بالكلاب كأنها موطنها الوحيد؛ الكلاب الإنجليزية والهجينة مختلفة الأشكال، المرفَّهة الصغيرة التي ينسدل الشَّعْر على أعينها بدلال، أو الشَّرسة العملاقة بألسنتها اللاهثة وأنيابها البارزة وعيونها الجاحظة، كلها ترتجف عند مروري، بات عليّ الإقلاع عن تحدي الحيوانات المتوَّجة على عرش شوارع المدينة. لا يمكن لي مواجهتها أو ملاحقتها، ناهيك عن اصطيادها والتَّمثيل بجثثها السَّمينة، صرت إذا لمحت صبية تجرُّ كلبها غيَّرتُ دربي، يزعجني انتباه المارة في الشارع

البارد إليَّ، والتفاتهم حين يلاحقني كلبٌ أكثر حساسية من سواه بعوائه حتى اختفي من الطريق تمامًا.

عند بوابة مبنى كلية لندن التاريخي المذهل بطوبه الأحمر وشبابيكه المستطيلة، داريت رجفة الخوف متظاهرًا بالشجاعة، مدعيًا لنفسي جدارتي وحقّي في الدخول إلى العالم الجديد. التقطت أنفاسي، متحكّمًا بالتسارع الذي بتُّ أسمعه في قلبي المصاب بالرهبة والحماسة في آن واحد، يوقعُ نبضي في صدري خبطاتٍ مرعبةً كأنَّها رتلٌ من العسكر ذاهب للموت في الحرب. أخشى الفشلَ كما أخشى النجاح، يرعبني النقص كما الكمال. هأنذا، ابنُ صبّاب القهوة الساذج المنحني الكتفين، أقف صالبًا عودي عند مدخل الكلية الأكثر عراقة، المصنع الذي يمدّ البنوك الاستثمارية في العالم بأبرز المصرفيين والحقوقيين والمستشارين وحكماء الرجال الذين يرتقون أعلى المناصب في دولهم. لقد استطعتُ أن أكون بينهم بعلامات مدرسية عالية وثمن أرض جرداء، وتحدٍّ يمهّد لتغيير جذريٍّ في حياتي البائسة. توجَّستُ من الحياة، هل ستطردني من لعبتها كما كان يفعل رفاق المدرسة؟ هل سيكتشف الآخرون نقاط ضعفي فيسهل دهسي كما تَدهَس عربة الخيول حوذيًّا عجوزًا في الروايات الإنجليزية؟ أم أني سأتعلَّم كيف أتحرَّك حذرًا في الظل، وأتقن عملي الباهر المبدع في العتمة؟

لم أر في حياتي صورًا مرفوعة على الجدران إلا تلك الصور الرسمية لملك البلاد وجدِّهِ وولي عهده في الدوائر الرسمية والمدرسة، وربما صورة لجدِّ الشيخ الكبير في واجهة مضافته العتيدة، فمَن هؤلاء الذين يصطفّون في أروقة وممرات كلية لندن للاقتصاد؟

عدد كبير من خرّيجيها الحاصلين على جائزة نوبل، فئة فوق احتمالي: جورج برنارد شو، وبرتراند رسل، ورالف بنش، وبول كروجمان، وغيرهم. ملوك ورؤساء وزارات وحكام دول وسياسيون بارزون. أين أذهب بين هؤلاء؟ ولماذا أشعر بالضآلة وأتذكَّر المثل اللئيم عن الفأر الذي مدَّ رجله بجسارة حين راحوا يحذون الخيل؟ ما الذي سيجمعني يومًا بهؤلاء؟ فلا أنا حصان سباق فائز، ولا حتى حمار عنيد يقضي حاجات الناس. كابرت مانعًا دموعي من فضح ارتباكي، أي مكان لعين وجدتُ نفسي فيه يضيق حولي على سَعَته؟

احتلّ شعار الكلية واجهة الممر باهتًا كأنه صُمم دون دراية وعلى عجل. امتزج اللون البنفسجي بالبني في تصميم غير موفّق، وبدا الحيوان الذي يشبه السنجاب في الوسط كأنه خربشة طفل رغم أن الشرائط التي تحيط به حملت عبارة فلسفية عميقة باللاتينية القديمة:

rerum cognoscere causas

فهم مسببات الأشياء

هذا ما تعد به الكلية التي انضمت حديثًا (آنذاك) إلى جامعة لندن، وأدارت حملة إعلانية ضخمة للتذكير بقيمتها العلمية، فمنحت الدرجات الفخرية لعظماء العالم، كان آخرها، وهو الأمر الذي لفت النظر إلى توجهها الكوني، منح الدكتوراة الفخرية في الاقتصاد لنيلسون مانديلا. مغازلة علنية لكل التوجهات الفكرية الساعية إلى نبذ التعصب والعنصرية، كأنهم يُصعّبون عليّ دربي ويُقيّدون أقدامي ويزرعون طريقي بالألغام، في لعبة تحدٍّ مثيرة يتوجب عليّ فيها شحذ أنيابي وأظافري وكل أعصاب عقلي لأستحقَّ الوجود في هذا المكان.

عالم فضفاض متعملق يفوق قدرتي على الاحتمال، يسلّط إضاءةً تكشف بثور وجنتيّ وما يلوح من اسوداد حنكي، وما تبقَّع في وجهي من علامات الفقر، كأنها ثآليل الطفولة المتقرحة، وقد يحوّلني تباين لون عينيّ إلى كلب شريد. اقتنيت نظارات حالكة السواد لا تتناسب وأجواء المدينة الضبابية الرمادية، وحاولتُ لمرة الاستجابة لنصيحة فني النظارات باستخدام عدسة لاصقة لعين واحدة. ظننتُ أنَّ لدي فرصة ثمينة في اختيار اللون الذي يناسب لون قميصي مثلًا. اخترت العسلي، فهو أقرب إلى الرائج، لن يلفت انتباه أحد، دسست العدسة العسلية برفق فوق قرنيتي الزرقاء، ثم تراجعت مذعورًا أمام صفحة المرآة، فقد بدت العين قطعةَ زجاج متَّسخة، ميتة تمامًا مقارنة بأختها التي حدقت بدهشة.

نَسَجَت المخاوف شبكتها في مخيلتي، لكنَّ الواقع جاء سهلًا. عاملني أساتذتي بتقدير كبير، كذلك عاملوا زملائي الملونين القادمين من إفريقيا وآسيا، فكلٌّ من تمكَّن من اختراق الكلية واجتياز امتحان القبول حمل للآخرين دليلًا دامغًا على اختلافه وتميزه، واستحقَّ مكانه. في حجرة الكلية الصغيرة المتواضعة كنتُ محاطًا بعباقرة سيغيّرون الحياة في بلدانهم يومًا ما، مع قلة من الطلبة الإنجليز لا يتجاوزون خمسة وعشرين بالمائة من تعداد طلبة الكلية، يقيمون خارج حدودها، والأثرياء مثل كايد يفعلون ذلك.

التزمت بميزانية محسوبة رغم الرزمة التي وضعتُها بين ثيابي وبطاقة الصراف التي أحملها وتصلني بحساب خصَّصَه أبي لي في البنك العربي. لم أكن مستعدًا لإهدار ثمن الأرض في فترة وجيزة، لا بد من توزيعه على أعوام الدارسة بانتباه وإن عنى ذلك تقتيرًا على نفسي. وما همَّني؟ فقد تعودتُ تقتير الحياة عليّ، اكتفيت بالعلب المعدنية للفاصوليا الجافَّة المسلوقة وبعض الخبز. وإذا دلَّلت نفسي ابتعت تفاحتين، افتقدَ جلدي الشمس والغذاء حتى صار أصفرَ وازددت نحولًا، لم يكن ذلك لافتًا لمن حولي، فجلّهم منشغل بدارسته، نلتقي في ممرات المبنى نلوّح بأكفنا كأننا نُسلّم، ثم يذهب كل إلى حجرته الكئيبة منفردًا بكتبه الضخمة. وحده الفتى العراقي ناظم، يسمح لنفسه باقتحام خلوتي مصطحبًا بكفِّهِ كأسًا من الشاي المحلّى بفائض من السكر، يثرثر حول يومه ويُلحّ لدعوتي للذهاب

إلى نشاط خارجي. أعتذر متخلِّصًا منه كل مرة بحجة، حتى نفدت المبررات.

في لندن الكئيبة الغارقة بالضباب، وبين وجوهِ أهاليها البيضاء المتماهية مع تماثيل متحف مدام توسو الشمعية، يتلوَّن المشهد بالمهاجرين السُّمر وأصحاب اللَّكنات المختلفة، تتعدد اللّغات واللهجات. عندما تُغيّر لغتَك تصبح إنسانًا مختلفًا، توضع في قالب يعيد صياغة أحلامك وأفكارك عن الدنيا بخيرها وشرّها. وإذا فشلتَ في الولوج إلى أسرار اللغة الجديدة فإنك تسقط من عليائك، تخسر الآخرين كما تُضيّع نفسك. لن تتمكن من العودة أدراجك ولا المضي قدمًا. وقد أسلمتني الإنجليزية قيادَها، روَّضتُها كما يروّض فارس حصانًا جامحًا. تتَّبعتُ أدقَّ أسرارها في كل منطقة في بريطانيا العظمى، حيث لهم بابل وحدهم. اكتشفت أن معلمي مدرستي، والأفلام التي كنت أشاهدها من التلفاز الموصول بخط كهربائي يمرُّ قرب خيمتنا، وافتقاري إلى بشر أمارس معهم تدريب لساني على التحدّث بالإنجليزية، كل هذا أفسد لكنتي لصالح لهجة أمريكية خفيفة أقرب إلى أساليب الرعاع في الحديث.

ولأني كنت ماهرًا في فك رموز الصوت الذي سيصدر عن طرق مادة بأخرى، الحديد بالحديد، والريح بأوراق الشجر، فإني في وكر اللغة الإنجليزية لندن، ضبطت ما ينبس به لساني دون دورات إضافية في اللغة كما يفعل الطلبة الأجانب. كانت مصادري محادثات الناس في الطابق

العلوي من الحافلة الحمراء، وحوارات المسرحيات الثقيلة التي أرتادها جالسًا في أبعد نقطة لا يراني فيها أحدهم. الأفلام الخفيفة والمبهمة الطويلة التي تجرى أحداثها ببطء يثير الضجر، الصحف السمجة بمقالاتها الساذجة والمتفذلكة، طوَّعتُ صُوّان شكسبير وهزل تشارلي شابلن، وصولًا إلى أغنيات فرقتي كوين وسبايس غيرلز. رغم انعزالي عن الناس دربت أذنيّ على التقاط الأصوات وتفكيك أسرارها، بتُّ قادرًا على تحديد انتماء المتحدثين من لهجاتهم، أُميّز بين العمال القادمين من بنجلاديش، وأساتذة الحقوق في المعهد العتيق، رغم محاولات المهاجرين المتنوعين الذين تشي بهم ألوان جلودهم للذوبان والتماهي عبر لسان واحد. كما يرتدي الشيوعيون بدلة السفاري، ترتدي ألسنتنا بدلة اللغة الإنجليزية مثل جوخ ثقيل، جافّ، خالٍ من التعقيد بعيد عن الخيال واقتراحات شكسبير. استقامت لغة المستعمر الحديثة الصارمة في لساني صلبة باردة كما لو كنتُ إنجليزيًّا عجوزًا مثقفًا قادمًا من عصر البارونات. مع ذلك لم أتلاش أو أذُب، كأني حجر صلب عنيد لا يتفتت ولا يتجاوب مع الندى.

بعد وصولي بأشهر قليلة، خرج الإنجليز من ربقة الركود الاقتصادي؛ لعل قدمي جاءت لهم بالخير. استعدوا لانتخابات برلمانية جديدة لا تهمني بأي حال من الأحوال لولا ثرثرة ناظم حولها باهتمام، واعتقاده بأن ما هو قادم سيؤثّر في المنطقة العربية. لا أشك بذكاء الرجل وتحليله

السياسي، ولكني أعلم يقينًا أن منطقتنا العربية لم تعش يومًا لم تكن فيه متأثرة بما يحدث في لندن أو واشنطن. اقتنصني جاري بكأس الشاي المحلى وبتصوراته عن أننا الطالبان العربيان اللّذين يجدر بهما التكاتف، ولأني لم أتكاتف يومًا مع حزب أو فكر سياسي، لم أكن أعرف لماذا عليّ فحص نوايا ومواقف حزب العمال البريطاني وهو يخوض انتخاباته، كما لم أسمع مسبقًا باسم توني بلير.

أخرجتني عوامل كثيرة من مُعتَزَلي لأصحب ناظم ذلك المساء إلى شارع «إدجوار»، فتختلف الرائحة والفضاء كله، تتناهب الكلمات العربية سمعي، كما تتتبع عيني الأحرفَ العربيةَ المخطَّطةَ في لافتات المحلات. تبدو النساء شبيهات ببنات عمان، والرجال برجال مادبا، كأني ارتحلت من لندن إلى بقعة تشرق فيها الشمس، إلّا أن الوقت كان مساءً، جلسنا على مقاعد قشية تُشبه مقاعد المقاهي الشعبية في بلدي، وأشعل ناظم أرجيلة فاح رحيقها قويًّا، واكتفيت بكوب عملاق من الشاي. انضمَّ إلينا شاب آخر من فلسطين، وفتى أفغاني يتذاكى طوال الوقت مستعرضًا معرفته بالعواصم العربية. وصَلَنا صوتُ محمد عبده من تسجيل عالٍ في المقهى مختلطًا بموسيقى أغنية لأم كلثوم تترامى من بعيد من مقهى مجاور. إنها الفوضى الحسَّاسة الجميلة، ولا بد أني استرخيت مستلذًّا تلك اللحظات، غير نادم على كسر عزلتي، حتى انضمَّت إلينا فتاتان؛ ساندي وجولي.

ليست المرة الأولى التي أتعامل فيها مع امرأة إنجليزية، لقد كسرت هذا الحاجز المريع منذ فترة، ترددت على دور بيع المتعة، وكان شَرطي الوحيد أن لا تكون رفيقة متعتي عربية. لا أريد صداعًا، ولا امرأة طفلة مدللة يُخيَّل إليها أني سأحبها وأُنقذها من براثن الرذيلة. كنت أدفع ما يترتب على تمتعي وأمضي، عامدًا أن لا تمرَّ المرأة نفسها في حياتي مرتين. لم أجد صعوبة ولا ردَّني خوف أو حياء أو وازعٌ ديني أو قلة خبرة، لكني أمام الشقراء جامدة الملامح التي تكتفي بابتسامة لا تدلُّ على شيء البتة؛ كأنها ابتسامة في الفراغ، ارتبكت. حين طوَّقَ ناظم كتف ساندي تنفَّستُ بارتياح فتلك فتاته، أما صاحبة الابتسامة اللامبالية فإنها قد تكون لي. فوجئت بفتيات يتحدثن في شؤون السياسة، قالت جولي مخاطبة ناظم: لا تنتظر شيئًا سارًّا من بلير، خاصة ما يتعلق بكم في العراق.

وافقها الأفغاني المتذاكي عبد الكريم في محاولة بهلوانية لخلق تواصل خاصٍّ مَعَها، ستطير مني كأنها لم تحط في مواجهتي. تزاحمت أفكاري، لعلي بحاجة إلى إيقاظ حواسي وتفعيل قدراتي البحثية كي أعرف المزيد عن الشاب الطموح الذي يتحدثون عنه، على الأقل كطالب في كلية تُعدُّ القادة، أو كرجل أعجبته فتاة تتحدث في تفاصيل لا يعرف عنها الكثير. إذا وَجَدَتْ أني كفء في النقاش معها ستنبذ الأفغاني، لكن الخطة تحتاج إلى زمن لا أملكه، وهو يلتصق بها كقرّادة مثرثرًا، وفي ثانية فارقة التفتت نحوي بروية، سائلة: هل ستحقق حلمي بزيارة إلى البتراء؟

صار الأفغاني شبحًا، وتسلَّمت الحديث ممتنًّا لشهرة البتراء الحجرية، مفيضًا بما لديَّ من معرفة بمدينتي مادبا الزاخرة بلوحات الفسيفساء. لم أكن أعرف كيف أتقدَّم من امرأة حرَّة لا تنتظر مبلغًا من المال مقابل رفقتي، كنتُ بحاجة إلى أن تطلب هي تلك الرفقة وأوافق، وقد فعلت.

ليست حسناء، لا تعكس الإثارة التي تُحدِثُها الشقراوات فينا نحن القادمين من السمرة الداكنة، ألوانها محايدة وجسدها معتدل دون تكورات الأنوثة المثيرة، لكنَّ عوامل أخرى كثيرة حولتنا بيسر إلى رجل وامرأة يتعاشران ويقضيان معًا بعض الوقت. تخاف جولي الكلاب والقطط والحشرات الطائرة، كما أن حاسة شمِّها معطلة، أدركت ذلك حين تراجعت مخاوفي من أن تنفر من العناق، لأجلها راجعت طبيبًا في الغدد وصف لي أدوية تخفّف التعرُّق الذي يتحوَّل إلى سبخات لامعة مبتلة حول جيدي ولبخات تحت إبطي وفي منتصف ظهري. صرتُ أُبدِّل قميصي مرتين أو ثلاثًا في اليوم، وكنت من قبل أكتفي بدس منديل قماشي خلف عنقي ليمنع العرق من إفساد ياقة القميص بملحي وحِمْضي الغزيرين. توقفت عن تلك العادة حين لاحظت نظرات الفتيات الشقراوات بعيونهن الخرزية الساخرة، أو بشفاههن التي تنقلب اشمئزازًا مما أفعل.

تحولت إلى رجل متمدن من أجل جولي. ابتعت فرشاة للأسنان، لكنها لم تكن معنية، كأنها لا تشمُّ ولا تفرِّق بين جسد حمضي وعطر

فاخر يُهدَر عليه، صديقة مثالية لا تزعجك بالأسئلة رغم أن بداية معرفتنا كانت سؤالًا لم تكرره بعدها البتة كأنها فقدت حماستها لزيارة البتراء، أو أنها طرحت سؤالها ذلك اليوم هربًا من سماجة مُحدِّثها الأفغاني. رفيقة مثالية مُملّة، تستلقي صامتة على بطنها معظم الوقت، في شقتها الصغيرة أو حجرتي الزنزانة أو فوق حشائش الحدائق العامة. تقرض كتابًا بانهماك كفأرة قراءة شرهة، لا تشرح لي ما في الكتاب ولا أسألها، تستدير فجأة ممسكة بخاصرتي، تجذبني نحوها لتتبادل قبلات سريعة تستثير ذكورتي، وتتحوَّل إلى امرأة شهوانية لدقائق، ثم تنطفئ إذا ما انتهينا مثل مصباح تمَّ فصلُهُ عن الكهرباء. تودِّعني بعد كل لقاء بقبلة محايدة على خدي، هكذا دون أوهام الحب ولا ضغط الملكية ولا أيّ تلميحات ساذجة حول جدية العلاقة، رغم أن زميلي في السكن ناظم يرتّب أموره للزواج من رفيقتها ساندي. باتت جولي امرأتي لسنوات أربع في صقيع لندن، أسهمت في توازني دون تبعات، لم أعد أبتاع الجنس من النساء المشاعات، لكني رغم الاتزان الذي أبدو عليه لم أتخلَّص من كابوسي البشع الذي يقضُّ مضجعي بين حين وآخر، حين أرى جسدي يركض في صحراء ممتدة إلى جوار ضبع صغير ينمو ببطء كلما تَقدَّم الكابوس. نركض متوازيين، ثم فجأة يستدير الوحش وقد صار عملاقًا، ينقضُّ عليّ ناهشًا قلبي الذي أراه وأشعر به يتساقط مفتتًا من الأنياب المدماة، فأصحو.. ثم لا أنام.

إذا حدث وفاجأت الشمس سكان لندن مارستُ وجولي هوايتنا في الاستلقاء على العشب بمحاذاة المكتبة. تتمدَّدُ مثل حورية يغطي كتابها ملامح وجهها، وأنصرف إلى هوايتي القديمة، أتتبع أوجه الشبه بين الناس والحيوانات، العيون الجاحظة أو الضيقة أو الفزعة، انسياب فتحة العين أو تكورها، تباعد العينين أو ميلانهما أو اقترانهما، كلها رسوم دقيقة تحيل إلى وجوه الحيوانات. أرى حولي بوضوح: الأرانب والثعالب والقطط والقردة والنمور والأسود والفيلة. أطراف المارّين الطويلة الرخوة تحيل إلى أذرع القرود وأذيالها وهي تتنقل بين أفرع الأشجار. الأفخاذ المكتنزة الصقيلة تُفصح عن أحصنة بليدة هرمة، الجبين المقطب فوق ملامح تنزلق تذكرني بخُلدٍ يهرب وراء الخيمة. الأسنان المتراكبة وهي تقضم الطعام تعيدني إلى القوارض المتوحشة والمستأنَسة على السواء. تفصح الحركة الناعمة لفتاة تتغاوى عن قطة، وتجهر المشية المتكبرة المتأنية عن هيبة الأسود، أمنح كل من أراه صفة حيوانية بشكل أو بآخر، أما أنا، فإني جمعٌ من الحيوانات، والأجدر بالتتويج.

***

أبتسم لسيل الذكريات. كلما زرت المدينة التي شكلتني طالبًا بارزًا عمدت إلى تحديها، تجولتُ بكِبْرٍ وزهوٍ في أرجائها، نزلت ضفة التايمز مستعرضًا نجاحي في مسيرة حياتي، ذلك النجاح الذي لم تسهم فيه درجتي العلمية من جامعة بريطانية محترمة. نجاحٌ حققتُ فيه احترامًا

مغايرًا، ذلك أني قدت دفة حياتي في مسار غير متوقع. ضفاف التايمز أيضًا في مثل هذا الوقت تقدم لي مشهدية غير متوقعة، كانت في الماضي تعجُّ بالشقراوات والسمراوات اللواتي يرتدين البناطيل القصيرة والصدريات المفكوكة من خلف ظهورهن، في محاولة لاقتناص فيتامين دال من الشمس في واحدة من طلعاتها الخاطفة. مشهد حيوي جميل أفترسه بنظرات الجوع الأبدي، مذهل حتى وأنا أمر فيه غريبًا وحيدًا، أو برفقة جولي، لكنه الآن بفعل كورونا مشهد يُحتَضَر، ضفاف مهجورة من البشر وماء عكر بلا سابحين ولا قوارب، ينساب رماديًّا كأنه مخلفات التاريخ لا سيولته التي رآها أستاذ التاريخ البريطاني جون بيرنز.

يحيا طالب كلية لندن مجددًا فيّ أثناء تلك اللحظات التأملية الشحيحة التي تنبعث كأنها ومضة في حياتي. كلَّما تمكنتُ من تحقيق تقدُّم دراسي ازددت ثقة بنفسي، كأن الفتى الحافي يموت في جسدي الجديد، والشاب الساخر يعالج ميله إلى العزلة ووحدته بنظرات متحدية أو كلمات استفزاز. أُمطر أساتذتي بالانتقادات محتميًا بتلك المسافة التي تتيحها المدرجات الدراسية المسرحية الضخمة، فاصلة بيني وبينهم وهم يُقدّمون معارفهم بثقة حتى يرتفع صوتي الغريب. كان البروفيسور سينيث يطيل السفر، ويبدو شديد التركيز إذا ما التحق بالكلية، يبغي إنهاء محاضراته الثمينة، مضخِّمًا من دورنا المطلوب والجامعة تلمُّ التبرعات لتوسعة مبانيها ومكتبتها. ماذا ستفعل القشة وسط حقل من القمح

سيدي؟ يلتفت أستاذي حيث انبعث سؤالي الاستنكاري، قائلًا: لا يقلّلْ أحدكم من قيمة التعاون، المستقبل يُبنى بالتعاون.

نجح دكتور ريتشارد سينيث في التسلل إلى عالمي، وشدَّني نحوه برفق وإن قاومت وصارعت بحدة طوال تلك الأعوام كي لا أُقرَّ له بفضل. وليظلَّ جاهلًا بما يعتمل في صدري من مشاعر وما يدور في رأسي من أفكار.

يمثّل البروفيسور الأمريكي الذي يتردد على كليتنا كأستاذ زائر اتجاهًا معاكسًا لمعظم علماء الاجتماع الذين أفزعهم التغول الاقتصادي، فتطامنوا معه وراحوا يفسّرونه. زملائي لم ينظروا بجدية إلى تأثير الاجتماع على الاقتصاد، تصرَّفوا مثل أجهزة ذكية تفهم الخوارزميات، وتكتفي من المساقات الموازية كالفلسفة والاجتماع بالحفظ الأوتوماتيكي الذي يضمن للطالب النجاح. وكنت مثلَهم، لكنَّ سحرًا غامضًا سرى بيني وبين د. سينيث.

ألتهم كتبي بنهم، ولكني أنتظر زيارات الأستاذ التي تتجدول وفق ارتباطاته في جامعة هارفرد وكليتنا المحسوبة على جامعة لندن. أنتظره بفارغ الصبر، والواقع أني لم أعرف معنى واقعيًّا لتعبير «فارغ الصبر» إلا في انتظاره. طوَّرَ أستاذي نظريته في التخطيط الحضاري لمدينة تقوم على التعاون، محاولًا مخالفة النظريات الرأسمالية التي تُبشِّر بمدينة مقطَّعة بعناية ومفككة بحمق لترسّخ قيمة الفرد فيها. سينيث المولع بالحديث

عـن طفولتـه الفقيـرة في حـيّ غـابريني جـرين في شـيكاغو حـين عـانى اضطهادين، أحدهما عنصري كونه يهوديًّا، والثاني طبقي لولد فقير، يشرح لنا أن موهبته في عزف التشيللو لم ترحمه أو تُعفِه من الاشتباك والصراع اليومي مع الأطفال السود المنبوذين في الحيّ، إلا أنه وجد الشجاعة ليغيّر واقعه وواقع الحي كله عبر برامجه الفذَّة في تعاون جماعي تتيحه مثل تلك الأحياء الفقيرة داخلها. لـم تكـن لهفتي للقـاء أسـتاذي نابعـة مـن رغبـة في مناقشته كما خُيِّل إليه، لكني وجدت عقلًا يحترم ما قد أقوله، ويشكُّ في ما أخفيه، وصوتًا أتعمَّد ألّا أوافقه في ما يطرحه من أفكار. ولأنه كـان البـادئ باسـتدعائي إلـى مكتبـه الصـغير، حيـث يجلـس رافعًـا قدميـه فـوق خشـب المكتب كما نرى أمثاله في الأفلام الأمريكية؛ إذ لا يرتكب إنجليزي دمث مثل هذا التصرف على الإطلاق، لكـنَّ الأمريكـي غيـر معني بالـذوق ولا تشكل له قدماه المرفوعتان والمتقاطعتان فوق سطح المكتب حرجًـا، إنـه فقـط يسـتريح وهـو يناوشـني وأنـا أنهـش عينيـه الـذكيتين ومقدمـة رأسـه الأصــلع المبقعــة بــالنمش وعدســتي نظارتــه المســتديرتين، بأفكــاري وكلماتي.

«لماذا تشك بإمكانية أن يصنع التعاون في الحي أو المنزل فارقًا؟».

لم أصارحه بأني لم أعرف الحيّ ولا المنـزل، وأني ابـن الـريح وربيـب الخيمة، لا أظنه يتصور بشرًا يعيشون في خيمة في عام 2000.

«ليس هناك دليل واحد واقعي على هذه النظرية الرومانسية».

«تراني رومانسيًّا؟ لديَّ الدليل يا فتى، الحيّ الذي عشت طفولتي فيه».

«أنت تراه مثالًا ناجحًا، لكني أعتقد أن تحقق التعاون في داخل نطاق حيّ ضيق لا يعني نجاحه، لأنه يفيد بأن الحيّ منفصل عن العالم المحيط به، عدو له بشكل أو بآخر، النجاح في المكان الضيق يقابله فشل في مكان متسع، الذين يخرجون من أحياء الفقراء، لا يمكنهم رؤية المدينة بصورة شاملة».

«هذا غير صحيح، معظمُ المصلِحين الكِبار خرجوا من أحياء الفقراء».

«الذي يعيش في مكان ضيق لا يمكنه مغادرته إلى فضاء واسع، انظر إلى السجناء الذين يعانون اغترابًا إذا أُطلق سراحهم، وإلى العبيد الذين ينهارون إذا نالوا حرياتهم».

«أنا أمامك، ماذا عني؟ لقد كسرت هذا الحاجز، بإمكان المرء فعل ذلك».

«لنقل إنك عبقري، والعباقرة فئة صغيرة للغاية. كذلك الأنبياء، لا يمكن القياس عليهم، ولكن مع الجماهير الواسعة لا يمكن تحقيق التعاون الشامل، ولا حتى على مستوى البلد الواحد، خاصة في بلاد منكسرة ومهزومة مثل بلادنا العربية، تلعب الطبقية والمصالح لعبتها ليصبح التعاون مجرد شعار لا يمكن تحقيقه».

«لا تكن سوداويًّا متشائمًا».

«لا تكن رجلًا أبيضَ متفائلًا، ما تقوله مجرد وهم من أوهام الفلاسفة».

يرخي د. سينيث قدميه المتصالبتين واقفًا، ويلتقط معطفه الكموني المموَّه بغُرَز صفراء، يمصمص شفتيه، وهو يتمتم: أنت وقح بعض الشيء.

أرتبكُ مرتدًّا إلى موقعي، طالبًا في حجرة أستاذه:

«أعتذر، لا أعرف كيف تجرَّأت على الحديث معك على هذه الصورة».

يرتدي معطفه راسمًا ابتسامة انتصار فوق وجهه:

«سأقول لك كيف تمكنتَ من محادثتي بتلك البساطة.. أنتَ البدوي الفقير القادم من العالم الثالث، وأنا الأستاذ القادم من دولة بحجم الولايات المتحدة الأمريكية. نتحدث لأني استدعيتُك، ألغيتُ المسافةَ بيني وبينك، وصدقتَني، هذه إحدى ميزات وأشكال التعاون يا شاطر».

لم تكن محاضرات الأستاذ ولا النظريات الاقتصادية التي تتوعد العالم بانقلاب حقيقي هي وحدها التي تعلَّمتُها في لندن، لقد اكتشفت هناك أني قضيت عمري منشغلًا بالصوت المزعج لفناجين أبي، وهمسات الصغار وسخريتهم في المدرسة، ولون عباءة الشيخ وشكل حذاء أبي المهترئ، ولكني جئت إلى لندن خالي الوفاض من فهم السياسة أو الاهتمام بها، لم أكن مرجعًا موثوقًا لسائلٍ قد يعنُّ على باله أن يستفسر

عن أوضاع الأردن بعد وفاة الملك حسين وتسلّم ولده الملك عبدالله الحكم منذ عام، أو عن مصير قضية فلسطين التي فاق عمرها عمري، أو العلاقات العربية – العربية المتقطعة، والعربية – الغربية التي لا تعرف التكافؤ. كنت أبيض تمامًا إذا تعلَّقَ الأمر بالسياسة، مما لا يستوي لطالب في كلية مجيدة. وبين اندفاعي لعلم أكاديميٍّ، وآخر حياتيٍّ أخشاه وأقف منه موقف المتلصص، كنت مضطرًّا لتنمية معارفي السياسية، ولكن ليس مواقفي، ففي أعماقي مواقف ذاتية للغاية تسخر من كل الأفكار السياسية اليمينية واليسارية على حد سواء. لقد آمنت أن المجد للاقتصاد دون سواه وما عداه مؤقت ونافل غير مؤثر.

في عزلتي أيقنت الحقيقة وراء ممارساتي الاجتماعية المحدودة، ذلك أن العالم خفيف فوق ظهري، إلا أن نفسي ثقيلة كالرصاص داخلي، قد تخفُّ لو سمحت للآخرين بحملها معي. وكانت جولي المرشحة الأقرب لتلك المهمة الفدائية ولكنَّها لم تُبدِ اهتمامًا، انزوت هي نفسها في قوقعة تخصها، مضاجعاتنا الحميمة لا تبدّل شيئًا، كذلك المناقشات الصاخبة مع أستاذي لن تفعل، لن يمدَّ أحدٌ يدَه إلى صخرتي يحملها وأنا أصعد بها وحيدًا.

كسب توني بلير جولته السياسية، لكن الوقت لم يمهله طويلًا ليواجه المصيدة التي أعدَّتها له السياسة. كان على بريطانيا أن تحزم أمرها في

مسألة الدخول في الحرب ضد العراق، وقد وضع بلير نفسه تحت إمرة جورج بوش واعدًا بأنه ماضٍ معه مهما كانت الظروف.

توتَّرَ ناظم والعالم يستعد لمحاربة العراق، ورغم أنه ترك سكن الطلبة منذ اقترن بساندي، إلا أنه لم ينقطع عن زيارتي حاملًا كيسًا ترتطم داخله علب البيرة. يتحدَّث بغضب، ويتجرَّع السائلَ الفوَّارَ الأصفرَ دون حساب، محاولًا إقناعي بمشاركته، فلا أشرب ولا أتحدث، إذا علا صوته حادًّا محرجًا وافقت على الخروج معه إلى حانة أيرلندية صاخبة يتجرَّع فيها المزيد من البيرة، فيصرخ كيفما شاء ويتبدَّد زعيقه مع رجع موسيقى وأغنيات فرقة «ذي بوغز» التي تصدح في الحانة.

لزمه وقت كافٍ ليلحظ الصخرة الصماء تتسيَّد ملامحي وهو يصيح بانفعال وغضب، ليختفي تمامًا. لم أعد أراه طوال فترة الحرب، حتى إنه لم يحضر المحاضرات في المدرج، وهمس لي عبد الكريم بأن ناظم منشغل وزوجته بتجميع المناوئين للحرب، وبالمظاهرات التي ينظمونها في شارع أكسفورد حينًا ومنطقة العرب إدجوار حينًا آخر، وواصل الرجل فحيحه في أذني:

«ما يفعله ناظم انتحار، لن يكمل تحصيله العلمي، سيحسبونه إرهابيًّا».

حتى جولي التي لا تهزها الريح، انتقدت قلة اهتمامي بما يحدث، وكأنها تجيد الاهتمام بأمر خارج كتبها الباردة وجسدها المبرمج

الرغبات. في تلك الأيام العاصفة المدمِّرة حدث ما غيَّرَ خطَّتي ووضعني مثل قطار على سكَّته، قطار لا يملك تغيير مساره. وُلدَ في أعماقي مخلوق قوي، عميق مخيف. واصل عبد الكريم همساته في أذني وكأنه شيطان رجيم، في الواقع لم أعرف من منّا كان الشيطان، فقد مضت سنوات ثلاث على وصولي إلى لندن، ونفدت النقود من يدي، حتى جاءت نجدة عبد الكريم السخية، كشف الأفغاني أسراره ومخاوفه طالبًا مساعدتي واعدًا بأني لن أندم، عندها عرفت أني حين أختار لا أعرف الندم.

كان متأكدًا أنه واقع تحت رقابة صارمة رغم عدم اتصاله يومًا بالمجاهدين أو الإرهابيين، ومحاولاته الصادقة للتحول إلى إنجليزي في درجة حرارة لا تتجاوز الصفر، ولم يكن الأمر ذا بال لولا أسرار حياته الأخرى التي ما أراد لها الانكشاف. اعترف لي بصوت حذر عن نشاطه في توزيع المنشطات والممنوعات والمخدرات في أوساط الطلبة، ولمَّحَ عَرَضًا عن تعاون سابق بينه وبين ناظم، وهو تعاونٌ قضى عليه زواج الرجل ثم انشغاله بالقضايا السياسية. هكذا ظنَّ الأفغاني الخبيث أني أَصلح لأصير مساعده المستقبلي، ما عليَّ إلّا الإفادة من سمعتي المحايدة الناصعة وعزلتي المعتادة لأتسرَّبَ مثل ماء عطن لا يراه أحد وإن فاحت رائحته. لم أكن معنيًّا بأسئلة تشي بخوفي، لأني لم أكن خائفًا ولا مستنكرًا ولا مترددًا، ما علي إلا التصرّف بذكاء. أتسلَّم الرزم الصغيرة

ثم أتصرَّف بها مع الطلبة العرب وسواهم ممن يُمكن لقاؤهم على كراسي المقاهي التي لوَّثَها هواء الأرجيلة، وضيَّعَ الأسماع فيها صوت أم كلثوم الخالد. ومنذ اليوم الأول الذي وافقت فيه على مهمتي الجديدة، اشترطتُ التحرك باسم مستعار. لا يرتاد زملائي طلاب كلية لندن المميزون المنشغلون بمستقبلهم الأكاديمي الباهر المقاهي والحانات التي أدخلها وأخرج منها على عجالة منجزًا ما جئت من أجله، كما كان مستبعدًا لقاء ناظم وهو في انشغاله الوطني الجديد، هكذا رأيت بنفسي سخرية الحياة، فحين كانت فئة من الشباب تتفجر غضبًا في المظاهرات والاحتجاجات، كانت فئة أخرى تعالج غضبها وخوفها وإخفاقها بما أمدُّها به من حبوب ومساحيق مخدرة.

لم أُهمل دراستي، ولكني ما عدت أجد متسعًا للخروج برفقة جولي التي اتَّهمَتْني ببساطة أنني عرفت امرأة سواها. لم تتمكن من تفسير ساعات الغياب والتقليل من لقاءاتنا الحميمة إلا بهذه الطريقة الساذجة التي تليق بالنساء. مع ذلك نتصرَّف عندما نلتقي على فترات متباعدة كأننا لم نتأثر البتة، تقرأ ثم نتضاجع وننتهي ليمضي كلٌّ منّا إلى دربه. ليست هناك من علاقة على الأرض أكثر وضوحًا وبساطة وأمانًا من علاقتي مع جولي.

بانتهاء الحرب أُصيبت إنجلترا الرعناء بتأنيب ضمير، يحدث هذا عادة

للمملكة العتيقة كلما اغتصبت أرضًا أو اضطهدت أمة، لكنه لا يغير من المعادلة الواقعة شيئًا. استقالت كلير شورت وزيرة التعاون الدولي احتجاجًا، وشُكِّلت اللجان لدراسة ما حدث بعد أن حدث، وخلصت إلى أن غزو العراق بُني على أدلة استخبارية خاطئة ونُفِّذ بعيدًا عن الأسس القانونية. مع ذلك ظلَّ رئيس الوزراء يكابر ويبشّر بعالم صار أكثر أمانًا.

لم يعد العالم آمنًا، فقد انفتحت في فضائه فجوة داكنة تعادل خطورتها ثقب الأوزون الذي يفتق حجاب الأرض. أنا نجوتُ من الفجوة بنجاح في تلك الآونة بالتحديد لتكبر مهامي وتتَّسع. أصدر عبد الكريم لي جواز سفر إماراتيًّا مزورًا. اختار بعناية هويتي الجديدة، فمواطنو الإمارات يحظون بالترحاب في أوروبا وسواها. في هذه المرحلة اقترحت على عبد الكريم أن تنقطع علاقتنا، لا يجدر به وهو الأفغاني المراقَب أن يُرى جالسًا مع أوس البيرق الأردني، كما لا يُستحسَن لقاؤه يومًا بحمدان الإماراتي الذي صرتُه. أصبحتُ خبيرًا بالتجوال وعقد اللقاءات الخاطفة وتوزيع البضاعة في أكياس صغيرة لا تلفت الانتباه، قبل أن أتوارى في شقة صغيرة في زقاق يتقاطع مع شارع أكسفورد بين خليط المطاعم والمحال التجارية. استأجرت تلك الشقة بدعم مادي من عبد الكريم رافضًا أن تُحسَب كلفتها من نصيبي في العمليات التي ترفع الأدرينالين في رأسي خالقة لذة عارمة تجتاحني، ولو عبَّرتُ عنها لرقصتُ مثل مجنون أشعث

أغبر. لكني أتمالك نفسي داخلًا الشقة التي لم أقطنها قط، أنزع ثيابي وأغتسل، أودع أوراقي الثبوتية المخترعة وأخرج عائدًا إلى حجرتي الجامعية، أوس الطالب المجتهد.

***

الحداثيون مغرمون بتعبير السَّيلان، وأنا خبرت سَيلان الأسباب على النتائج، والمتشابهات على الأضداد. لا يمكن لعبقري واسع الخيال أن يدرك تلك القفزة التي دفعتني إليها الحياة رغمًا عني أو بإرادتي، كأن يدًا شيطانية دفعتني من أعلى مرتفع إلى الهاوية، من الخيمة التي يعيث فيها الريح جورًا وبردًا وغبارًا، إلى ردهات الفنادق الفاخرة وبيوتات الحجر المنحوت المحصن بالنوافذ الفولاذية المزخرفة. ولولا أني جئت حاملًا اسمي الصريح في مهمة خاصَّة إلى لندن، لاستدرت عند المنعطف في شارع أكسفورد وولجت الزقاق القديم فما زال مفتاح الشقة بحوزتي، وما زالت أوراق حمدان هناك، أستخدمها كلما نزلت المدينة. حدث ذلك لمرات ثلاث أو أربع، لا يمكنني التذكُّر على وجه الدقة، ولكن هذه المرة ليست كذلك، لم آتِ لأكون حمدان، ولكن لأعتني بأوس. ليس أصعب من العناية بالنفس التي شهدتُ تبدُّلَها بالتحديد عند تلك الزاوية من الشارع الذي أتجاهله الآن، هناك دخلت اللعبة الكونية من أضيق أبوابها، وعلمتُ أنَّ كل ما حولنا مجرد مربعات صغيرة متآكلة الأطراف تتلاصق على نحو عبقري كي تُشكّل صورة بانورامية مخيفة لعالم من فسيفساء

تتنافر ألوانُها. فما يحدث في مكان ما من العالم يقود إلى ما هو حادث في أقصى بقعة نائية، مثل أحجار الدومينو التي تضطرب وتتهاوى تباعًا إذا ما دُفع واحد منها. هناك اختلطت أكياس الحبوب المهلوسة والممنوعات الصغيرة التي لا تلفت الانتباه بمسدسات صغيرة وصفقات غامضة لقنابل يدوية ورشاشات. باتت حفنة الماء التي أقبض عليها يدي نهرًا جارفًا، توسَّعَتْ تجارتي وتعدَّدَت أعمالي مثل الطيور المهاجرة التي لا يمكن الإمساك بها وهي تذرع الفضاء طريقًا لها. تنقَّلتُ بين توزيع المخدرات وتوزيع السلاح، بداية صغيرة بسيطة تتيح لي إخفاء قطعة في ثيابي أو حقيبتي، ثم صفقة أرتبها كسمسار ذكي تطير بالسلاح إلى حركات التمرد أو المقاومة أو الإرهاب. في الواقع لست معنيًّا بخصوصية الزبون وأين يستخدم سلاحه، لكني ملتاثٌ وشَرِهٌ والنقود تتدفق بين يدي. أوزّعها على البنوك آملًا أن يصعُبَ تعقُّبُها، لم أعد مجرد صبي التوصيلة الخاص بعبد الكريم، صرت حجرًا أساسًا في اللعبة المثيرة، وفهمت في دربي الجديد سَيَلان الأشياء على بعضها بعضًا، وربما أدركت وحدة الكون أكثر مما تسنّى لفلاسفة الهند الأتقياء. شعاري الساخر مقولة عبقرية أطلقها كوميدي في مسلسل قديم باهت، حين ظل يردد: «إذا أردت أن تعرف ماذا في إيطاليا عليك أن تعرف ماذا في البرازيل». في تلك الآونة اكتشفت غرامي بدور السينما الرطبة المعتمة حيث يمكن تسليم رزم المخدرات الصغيرة ومشاهدة أعتى الأفلام العالمية التي تحفر في أسرار

المافيا ومروجي الممنوعات إذ يهزؤون بالعالم ويمتلكونه عنوة. يقف البريطانيون في صفوف لمشاهدة الجزء الثالث من فيلم العرّاب الشهير، وأقف ملتزمًا بالصفوف لأحظى برؤية آل باتشينو يصول ويجول. وعندما استدعى الجزء الأخير من الفيلم جزئيه السابقين فباتت تُعرَض في دور السينما لتُذكِّر الأجيال بمارلون براندو العظيم وروبرت دي نيرو المذهل، رحت أعيد مشاهدة الفيلم مرات ومرات، وفي كل مرة ترتفع نسبة الأدرينالين في دمي وأخرج منتشيًا ملهمًا. استعان مجرمو العرّاب بعائلاتهم: إخوتهم وأبناء العمومة ونُطَف الزنا الذي مارسوه مع النسوة الغريبات، ولم تكن لي عائلة تمنحني طموحًا بتوسيع أعمالي، سأظل وحيدًا مثل دب ضائع في أصقاع سيبيريا، أو ذئب مشرد في صحاري أستراليا، ولا يزعجني هذا البتة، أنا مكتفٍ بنفسي، ولا أدَّعي أني اكتشفت لعبة الحياة بقسوتها، فأنا مثل الجميع وُلدتُ في عتمة ومضيت فيها، فما أضاءها نور الشمس ولا ألوان الطبيعة، أنا أيضًا كذبة لم تنكشف، لا يكشف الضد إلا ضده. وليس هناك من يكشفني.

لم يطلبني د. سينيث إلى حجرته كما يفعل كلما عاد من واحدة من رحلاته المكوكية، استفزَّني أنه تجاهلني في محاضرته، كأنه نسي طالبه الشاطر. ربما يشعر بالخجل أو الوجل بعد غزو العراق، ماذا سيقول لطالب عربي وكيف سيُبرّر ما تفعله بلاده بالعالم؟ هل نُسفت نظرياته الفريدة أمام جشع العالم لاستعمار الآخرين بطرق قديمة متجددة؟ ذهبتُ

إلى حجرته بنفسي، لاحظت أنه كبر قليلًا، كما زحف صلعه حتى مؤخرة رأسه. أنا الذي أُلغي المسافة بيننا الآن يا أستاذي الجليل، جلست مُرخيًا كفيّ فوق خدّي كأني غير مهتم، لم ألوّح بهما حائرًا، ولا مددتُ رقبتي ناشدًا الاقتراب منك، جعلت صوتي هادئًا متأنيًا، عاطلًا عن المشاعر والحماسة البلهاء، صوت فخيم بليد لا يبوح بما يدور من هزَّات وبراكين في أعماقي، صوت يسترني بعظمة ووقار زائفين.

عينا أستاذي زائغتان كأنه لم يعد متأكدًا من الترهات التي يقولها:

«ما يحدث هو صراع الفقر والغنى، كما كنت أقول؛ بالتعاون يمكن القضاء على تلك المعضلة، مثلما يحدث في أسرة فقيرة يمكنها تحقيق التوازن إذا توافرت روابط أسرية متعاطفة وسليمة، هذا ما يجب أن يسعى له العالم لحل مشاكله».

»لكن ما يحدث ليس صراعًا أسريًّا في عائلة فقيرة، إنه طمع الدول الرأسمالية بثروات العالم، أليس كذلك؟ وماذا إذا لم تتوفر تلك الراوبط المتعاطفة السليمة؟«.

«ينفجر الكائن! تريدني أن أقول ذلك؟ تريدني أن أستسلم وأُقرَّ بأن الحرب هي الخيار الوحيد؟ كلا، سأبحث عن خيار آخر ملائم».

«إلى أن تجده يمكن للبشر تدمير العالم».

«صدقني، يمكن للناس أن يتساعدوا وينجوا».

«يمكنك أنت ولست أنا. لا أرغب في مساعدة أحد، وأعلم أن أحدًا لن يساعدني».

«روحك برِّيَّة! كأنك راغب في معاداة الجميع».

«ربما، كما أن الجميع يرغب في معاداتي، أنت وحدك في ساحة تخصُّك».

يبتسم ضجرًا ويتململ كأنه راغب في انصرافي:

«أنت لم تعد تلميذًا البتة، أصبحت تخيفني!».

كانت هي المرة الأخيرة التي أُحاور فيها أستاذي، فالكلام لا جدوى منه، خطان مفترقان، وقد صار لديَّ قضايا أكثر أهمية من انتظار الأستاذ الذي أفقد صبري في انتظاره. انصعتُ لتلك المتعة المذهلة التي تعتريني ممزوجة بالحذر والرعب كلما أتممتُ صفقة، ووسط تلك المتغيرات التراجيدية الكبيرة في حياتي وبعد أن أقمت في لندن البائسة ثلاث سنوات متتالية لم أبارحها، ظهر كايد فجأة.

يمنحني أبي السبب وراء السبب كي لا أغفر له، كان بإمكانه الاتصال بي مباشرة كأيّ أب طبيعي ينقل خبر وفاة الأم إلى ولدها، لكنه تصرف مثل أرنب وجل، سلَّم كايد فرصته كي يُقدِّم لي عزاءه ومواساته.

«أمك في رحمة الله، جلطة عادية هذا الصباح، بلغني الخبر الآن، العمر لك، إذا أحببت تروح مادبا، أقطع لك تذكرة».

تقطع لي تذكرة؟! تحسبني ابن صبّاب القهوة في مجلس أبيك! لم أبح بغيظي وبان فتوري تجاه فكرته الكريمة بالعودة لحضور الجنازة. هي أمي وليست أمه، هززت رأسي وفهم أنّي غير راغب، لعله توقَّع أنّي سأتفجع راغبًا في طمر جسد أمي بالتراب بنفسي، لكن الذي حدث عجيب للغاية، لقد تذكرتُ أنَّ لي أمًّا، رحلت سنجابي الصغير ولم أتعلم منها إلا حكمة ملاقط الغسيل، ولم أعد أتذكر ابتسامتها الخجولة البلهاء وهي تخفيها بشد الشمبر الأسود الذي يحيط برأسها مواربة فجوة بين أسنانها التي سقط زوج من أزواجها التي في المقدمة.

لم تعد أمي موجودة، ما الذي سيتغير في هذا العالم؟ لن تتزلزل الأرض، ولن تتوقف صيرورة الحياة المقيتة، وأنا الذي أكنز نقودي المتَّسخة بغبار المخدرات وسناج السلاح، لم أرسل لها يومًا ما يمكّنها من ابتياع ثوب جديد، ولا أظنها انتظرت مني، وقد ضبطت نفسي تتسلى عن فجيعة الفقد بترهات الأمور. لاحظت أن الملعون كايد ازداد وسامة وتوهجًا، لورد إنجليزي بسمرة غامضة، برزت عضلات ذراعيه كما لو كان رياضيًّا أو نجمًا سينمائيًّا، شعره أقصر وأقل لمعانًا، لكنه يشي بتغير حضاري أصابه. تحسَّن ذوقه في ارتداء ثيابه وأحذيته، لم أتغيَّر رغم أني أكنز الكثير، لكني أُفضِّل الحفاظ على خطِّ حياتي من عيون من قد يسأل: «من أين لك هذا؟». كأني وصلت للتو ببدلة رخيصة ابتعتها من شارع السلط في وسط عمان، بينما هو شديد الأناقة ببلوفر بولو وقميص رياضي

وبنطال فضفاض قليلًا. يخبرك حذاؤه أنه ثري جدًّا، جاء يخبرني ما يستوجب مني الحزن العميق، وها أنا أتلهّى بتفاصيل ثيابه وشعره المصفف إلى الوراء! أيّ ابن عاق أنا؟! لا أظن أن صمتي ووجومي كافيان للتدليل على الحزن، ولو على سبيل الرياء، ولكني تحنطت حتى لم أعرف ما يتوجب عليّ فعله، ظننت أنني أكثر حكمة في التعامل مع الأشياء التي تخدش ذاكرتي، كنت أقول: إن ما مضى لم يعد موجودًا، ولا ضرورة لربط القادم من حياتنا به، لكنَّ غصَّةَ طفولتي المهانة لا تبارح حلقي.

جاءت جولي تواسيني رغم أن علاقتنا ضُربت بصقيع ننكره، صارت تشبه ضباب لندن الذي يمر لإثبات وجوده ولكنه لا يغيّر شيئًا من إيقاع الحياة. مع اقتراب الامتحانات النهائية خففتُ تدافع العمليات السرية التي أقوم بها، انقطعت عن أن أكون حمدان لبعض الوقت، لم أعد أتحدث إلى أحد، بتُّ منفردًا بكتبي ملاحقًا النجاح متعطشًا لتغيير حياتي السقيمة المضجرة. كما لم أحدّث نفسي.

يتحدّث الأسوياء إلى أنفسهم بصوت عالٍ مسموع، أما أنا فلا أفعل، ها أنا أعترف أني لست سويًّا كالآخرين القادرين على فتح متنفس في المرجل الذي يغلي في صدورهم، يتخلَّص هؤلاء من الضغط بأبسط السبل، فيتفادون الانفجار، النساء يثرثرن لبعضهن، والرجال يؤلفون كتبًا في الفلسفة والأدب، أما أنا فمُغلَقٌ بترباس، لا أتمكن حتى من محادثة

نفسي بصوت تسمعه أذناي. كأني انتحاريٌّ يسعي للانفجار الكبير، لكني أعرف أن خلاصي مُعلَّقٌ بعودتي إلى عمان ككهف أنزوي فيه بعيدًا عن مراقبة العالم لنشاطاتي الجديدة، صورة لبدوي بسيط غيَّر مستقبله بعلمه، وسار متمهلًا ووصل، يتمتَّع بما كسبه من علمٍ وما آل إليه من ثمن أرضه الجرداء. فكَّرتُ بالتفصيل بمشروعي المستقبلي الذي سأغسل فيه أموالي، لم يُغرِني نجاحي بالبقاء ولا كلمات التشجيع من أساتذتي لإكمال الدارسة العليا، ولا الأمثلة للطلبة المميزين من خريجي كليّتي الذين صاروا علامات فارقة في اقتصاد بلادهم ومواقع اتخاذ القرار. لقد شربت من نبع العلم جرعة وحملت شهادتي التي تُعلن أني ناضلت كي أقف في صف المميزين، واكتملت خططي للمضي في حياتي على نحو مختلف.

ودَّعَتني جولي في مطار هيثرو، أوصلتني بسيارتها الصغيرة، وساعدتني في نقل الحقائب مثل فتى قوي الساعدين، قبَّلَت وجنتيَّ بآلية ثم استدارت نحو بوابة المطار، ركبَتْ سيارتها وانطلقت كأنها تتخلص من حمل ثقيل يهدُّ كتفيها. انقطعت علاقتنا تمامًا، لم تراسلني واكتفينا بتحية باردة. حين عَثَرَت عليّ على الفيس بوك مؤخرًا، تبادلنا التحايا، لم أعرف أخبارها ولم تسأل عن أخباري، بعض البشر تسهل إزالتهم؛ كأنما هم خطٌّ رفيع بقلم رصاصي تمحوه ممحاة طفل.

لم أمنح أبي فرصة للاحتفال بي وبنجاحي على طريقته، غبتُ في عمان أتدبّر أمر لملمة نقودي وتهيئة مشروعي الخاص. يستحق هذا النجاح أن

ندهنه بالشوكولاتة، لا أحتاج إلى مغسلة ثياب أُبيّض فيها أموالي، لتكن داكنة كما الشوكولاتة، وسائلي معاصرة مبدعة في تأنيق الخراب وتجميله وجعله حلوًا.

لا للعلانية، لا أسير مسلَّحًا، كما لا أجلب السلاح لبيعه لشباب العشائر المختالين، إذا مرَّ السلاح من الأردن أحرص على إخراجه إلى وجهته سريعًا، فيعبر مثل برق لا يراه أحد، فالبلاد عمومًا تخاف السلاح. عندما أخرجتُ مسدسي للمرة الأولى مستعرضًا مزهوًّا، غطّى أبي عينيه بكفيه المعروقتين صارخًا: «سايق عليك النبي تبعد هالماخوذ عن وجهنا».

لم أكن متأكدًا تمامًا ما إذا كان موافقًا على أن أحمل مسدسًا كرجل العصابات أم أنه خائف مرعوب؟ فقد التقطتُ وراء تأنيب العينين البخيلتين شرارة إعجاب وزهو في نظراته، هزَّ رأسه كأنه اكتشف أن العلم لم يفسد رجولة ولده ويحوّله إلى بني آدم راقٍ، كأنه فرح أنه بات في يدي سلاح كما أولاد الشيخ، وأني وحشٌ شرسٌ لا يمكن لأحدهم وطء ظله. لم ينبس أبي بكلمة من الكلمات التي تشكلت في مخيّلتي، والتي أوشكتُ بسببها على الغفران، في لحظة الزهو تلك كان يمكنني مسامحته على عوز الطفولة والحرمان لولا غيظ كامن في الزوايا.

لم أستعرض مسدسي الرهيب أمام أحد بعد ذلك، كنت أجرّب حجمي الجديد ووزني في عالم نمطي، سرعان ما بعت المسدس ولم

أطلق منه طلقة، بعته بعيدًا عن معارفي، يممت به صوب بادية معان، إنه الحرص على التحرُّك مثل ثعبان زلق.

بتُّ أستخدم اسم العشيرة الفاصل الواصل القاطع، يحلو لي سماع الآخرين ينادونني به للتملق أو الإعجاب الزائف، لكني في أعماقي غير معنيٍّ بالانتساب إلى الاسم الجهم. لم يعنِني أو يمثّلني يومًا، ولا أنتسب إليه، تحررت منه تمامًا، وآمنت أني عصامي بالكامل، لن أستند إلى جدار قبيلة أُكنُّ لها عداء خفيًّا يليق بتهميشها لي في طفولتي. لكني أستغل الاسم بنجاعة وتدبير، أستحضره عند الضرورة كإقامة علاقة منفعة سريعة بطرف مهووس بالانتساب، أو التعامل مع رجال لا يعرفون كيف يَزِنون الرجال من سياسيين وأصحاب أعمال وموظفين موكَّلين بإنهاء إجراءات إنشاء مصنعي، وخدم ومنتفعين، قطاريز ووسطاء؛ كل هؤلاء يفيدون في أماكنهم.

مات الشيخ أبو كايد في ذلك العام بينما ولده يستكمل دراسته العليا في لندن. قَطَعتُ ارتباطاتي وأجّلت إجراءات تسجيل مصنع الشوكولاتة عائدًا إلى مادبا، أقود سيارة بي أم دبليو ابتعتُها مؤخرًا، راغبًا أن يراني الشيوخ ورجالات الدولة أشارك في طقوس العزاء وقد ارتديت بدلة ماركة جيفز وهوكس التي لم يسمع أحدهم بها.

امتدت بيوت الشعر للعزاء على مسافات شاسعة فوق الأرض الحمراء وعشب الربيع السخي، ووسط كمائن أزهار الدحنون وطلع

الحندقوق الأصفر. ووقفت السيارات الفارهة وترجَّل خلق كبير منها بالعباءات والبدلات. لم تكن سيارتي ذات شأن بين سياراتهم، ولا تنبَّهَ أحدهم لما أرتدي. تباطأت حركتي وأنا أرقب فتية من صبّابي القهوة يتحركون بهمّة وجديّة حاملين الفناجين والدلال، وفي الخيمة التي وقف فيها كايد بعد وصوله من السفر بلحظات متلقيًا التعازي، رأيت أبي واقفًا يندب بحرقة، يتمايل مثل بندول فقد اتجاهه صائحًا:

«والله كان يقول لي: أنت حمار يا منصور، ودّي الولد يتعلم، لم حالك ومرتك بدار. كان ظهري وسندي، حسرتي عليك يا أبو كايد، لولاه ما عمّرت داري ولا دخل الولد مدرسة ولا راح لندن، أفضاله غرقتني من راسي لساسي، لحم كتافي من خيره».

اكتفيت بتعزية سريعة مقتضبة، أخذتُ أبي من ذراعه وجررته خارجًا به. لم نتحدث طوال الطريق حتى وصلنا إلى بيته الذي يزهو به وبغرفتيه الضيقتين، انفجرت غاضبًا:

«الرجال يُعزّون واقفين صامتين بهيبتهم، وأنت الوحيد اللي يتنطط، تجوح ولسانك ما يدخل ثمك، ما ظل غير تلطم خدودك مثل النسوان».

«اللي ما يشكر الناس ما يشكر ربه».

تحشرج صوتي مقهورًا:

«تشكر؟ ليش؟ شو ساوى لك؟ كنت عريان وكساك؟ جيعان وأطعمك؟ ما هو من تعبك وكدك، وتعليمي والدار من حق أرضك ومن

سهري الليالي، خزيتني، ما أنت عارف قيمتك ولا قيمة ولدك، قللت قيمتي بين الناس».

فتح جفنيه المغضَّنتين مذعورًا، كمن يرى أمامه ولدًا لا يعرفه.

انقطع تواصلنا بعد هذا اليوم، ولم نلتقِ حتى تزوجتُ فجئتُ به لحضور زفافي استكمالًا للصورة الاجتماعية العادية، ولم أرجع إلى مادبا إلا لأدفنه فيها، وما زال البيت اليتيم الذي بناه من حجرتين مغلقًا قائمًا في مكانه.

(3)

توهن الذكريات جسدي وذهني، لست أحتاجها، ولكنها تنقضُّ عليّ بتفاصيلها الصغيرة وتحولاتها الكبيرة، كأني أقف مقابل مرآة حياتي، كأني أرصد نفسي لأفهم ما الذي جاء بي إلى لندن الآن والناس مذعورون من انتشار الوباء، يخفِّفون أسفارهم ويتصرفون بحذر وسط سيل من الشائعات عن دمار يلحق بالبشر أجمعين. لمَ أدع ذاكرتي تنغّص عليّ لحظات متعتي الفائقة في فندق تعوَّدَ استضافة العظماء والنجوم والمشاهير؟ ذاكرتي لئيمة مثل شحاذ يصرّ على الوقوف وراء زجاج مطعم فاخر، تأتي لاقتناصي وتتجوَّل بي في أزمنة مختلطة، منذ كان شعري كثًّا مختلطًا بتراب الأرض، وعرقي دهني لا ينقطع، إلى أن صرت ما أنا عليه.

شعرت بالإعياء، نظرت إلى هاتفي النقال باحثًا عن تاريخ اليوم، وأنا عارف به، أردت رؤيته مكتوبًا، يلحق به غدٌ أظنّه أكثر أهمية لي من أي يوم مضى في حياتي. عرَّيتُ جسدي ومطَّطتُّه وتنهدت تحت وابل الماء المتدفق في الحمام، حاولت التنفس بعمق ظانًّا أن أنفاسي انقطعت برهة، ثم انتظمت، غدًا يوم جديد، يومٌ سرّيٌّ لم أفصح عنه حتى لزوجتي رجاء، رغم أنها الدافع الحقيقي لما سأفعله غدًا.

انطرحت عريانًا فوق السرير واستحضرتها بهية فادحة الجمال كما هي دائمًا.

***

أدرت مصنعي بحرفية وصرامة، ورسمت صورتي باقتدار؛ الشاب الناجح العائد من بريطانيا ليؤسّس تجارة رابحة، الرجل الذي باع أرضًا ليتمكن من اقتناء شقة في ضاحية الرابية حيث بقايا الطبقة البرجوازية ومتقاعدون كبار موظفي الدولة، ولاجئون عراقيون ذابوا في المجتمع وصاروا بعض لحمه الوافر الثراء. اخترت شراء شقة بسيطة تعتلي صيدلية، وسط البيوت الحجرية الراقية التي تفوح بالياسمين، شقة قديمة نسبيًّا لكنها في حالة ممتازة، خلفها مساحة ترابية يغزوها العشب والدحنون في الربيع، وتُركَن فيها المركبات طوال العام. حجرتان للنوم وصالة ومجلس صغير ومطبخ عصري وحمامان، وشرفة صغيرة تمكنني من نشر ثيابي على مشبك خاص. تصطفُّ مركبة «بي إم دبل يو» وراء الشقة، وتتهامس الجارات حول الشاب الأسمر المهذَّب القاطن بينهم، أعزب لكنَّ ناظريه لا يتجسّسان خجلًا، تلك صورة مخاتلة، خدعة أُتقنها كي لا أثير الزوابع حول نفسي في الحي الذي أقطنه ولا يزعجني فيه إلا هواية الشباب من مخلفات الأسر الثرية الذين ينزهون كلابهم فيسهمون بمنعي من مغادرة شقتي، لتؤكَّد الشائعة حول الأعزب المهذب. إلا أن الواقع مغاير تمامًا، فقد كنت حينها مصابًا بالشره للطعام والنساء، لكني قادر على إيجادهما بعيدًا عن موقع سكني. حتى بعد أن فقدت القدرة على الإكثار منهما، إذ تزعق معدتي التي تعوَّدت القليل، تتلبك إذا عبَّأتها بالأطعمة المنوعة في المطاعم باهظة التكاليف، وتنفرط على هيئة إسهال

رامية بكلّ ما فيها في مقعد الحمام البورسلاني. كذلك الأمر إذا أفرطت في مغامراتي النسائية، تضربني عنانة عابرة قد تخزيني وتردّني لأرتاح قبل أن أتجاسر على البحث عن جسد رخيص آخر. تتراكم النقود في حساباتي في الملاذات الآمنة ولكني أقنِّن تعاملي معها، لست بحاجة إلى من يقف ليسأل: من أين لك هذا؟ مع ذلك، أشعر بالخديعة، حين أقبلتُ على الدنيا شغوفًا لاغتراف متعها وغبِّ أطيابها، كبحتُ قدرتي على أن تصل إلى منتهاها من المتعة. ارتفعت وتيرة اضطرابي وإرهاقي، تجنَّبتُ الحياة الاجتماعية بدعوى التمتع بالراحة، منحت جلّ نهاري لعملي في مصنع الشوكولاتة، وأشياء أخرى تُنجَز بحذر في أسفار قصيرة متقطعة. أتحوَّل إلى حمدان مجددًا وآخرين غيره كلما لاح في الأفق طيف صفقة ما. أبني شبكة متينة تمرر الحبوب المهلوسة والأسلحة الصغيرة بين عواصم الشرق والغرب. يتآمر العالم معي فتتكاثر مجموعات المهلوسين والمجرمين والثوّار، يشقّون الأرض كثمار الفطر النافعة والسامَّة، يفقد الحكام دفء كراسيهم وتلتاث الشعوب بأحلامها ومقدّراتها المحدودة بعد أن تفجر الربيع العربي مجتاحًا عواصم الشرق الأوسط كما الوباء، ازدادت الحاجة إلى بضائعي وتمكَّنتُ من فنون التخفي والتنقل والتجارة دون تسليم شخصي لطرف أو سمسار أو عميل. أتحرك مثل شبح خفيٍّ، لا رغبة لي في عنتريات رجال المافيا وأبطال الفساد، أحب سيري بطيئًا وحيدًا مثل سحلية على جدار، كما يعجبني الظهور في عمّان كطفل بريء

علقت رائحة الشوكولاتة في شعره وثيابه. يا للفتنة الظاهرة! في حين أني كنت أفقد اتزاني حتى إن أطرافي ترتعش مساءً كجناحي طير لا يقوى على الطيران، يصيبني أرق في معظم الليالي رغم ابتلاعي للحبوب المنومة، وإذ نمت، لا ترحمني الكوابيس.

ثم التقيت بها، لعبة غريبة من المصادفات. لم يكن لقاؤنا مقدرًا لو استجبت للغضب الذي أصابني حين دعيت إلى زفاف كايد ابن العشيرة الذي بات صاحب واحد من أكبر مكاتب المحامين في عمان. استفزتني البطاقة المخملية الحمراء والموشاة بحروف مذهبة، من أقبح بطاقات الدعوة للأعراس، لا يعني هذا أني كنت خبيرًا بهذا النوع من البطاقات، فلم أتلقّ يومًا دعوة إلى عرس، وها هي ملساء بحجم كتاب مدرسي يزينها اسم العريس وعشيرته، ويُغفَل فيها اسم العروس، ولكن اسم عشيرتها يبوح بالكثير عن التقاء المصالح، فكرت بالاكتفاء بباقة أزهار عملاقة فجّة الذوق كبطاقتهم تحمل اسمي وتنوب عن وجودي، فلم أعد بحاجة إلى استعراض بدلتي الأنيقة بين مجاميع بشر لا يلاحظونها، لكن نداء غامضًا حرّضني على الذهاب.

وقفت في الممر الذي دخل منه العروسان في الفندق وسط زفّة صاخبة ودفوف وطبول وأصوات صادحة، رقص كايد لعروسه برشاقة مفارقًا وقاره بوصفه ابن شيخ ومحاميًا استعار بروده الإنجليزي من دراسته المهيبة. تصرّف مثل أيّ شاب بدوي مبتهج معلنًا سعادته بقيد مؤسسة

الزواج الذهبي، بينما تحرَّكت عروسه كدمية عاطلة عن الروح عالقة بثوبها المنفوش، حذرة من قبلات النساء اللواتي يندفعن نحوها. توسطت الزفة الصالة المضاءة بعشرات الثريات الكريستالية المدهشة، وجلس الحضور تاركين الساحة للعروسين يؤدّيان رقصة هادئة على أنغام رومانسية تحت إنارة صفراء ناعمة. تملَّكَني الضجر مع توافد المدعوّين وارتفاع صخب الموسيقى، فرُحتُ أعد دقائق قليلة قبل مغافلة الجميع والانصراف. لكني لم أفعل، وسط المشهد الممل لبشر سعداء يتقافزون على أنغام الأغنيات الهابطة. أقبل محامي مكتب ابن الشيخ برفقة ولده الفتى متجهًا نحوي كأنه يقصدني، خلفهما تبين وتختفي بنت بسيطة مرتبكة كأنها ذاهبة إلى مدرستها. شعرها الطويل مجموع ومرفوع بحابس له بريق الذهب لكنه ليس ذهبيًّا، وجهها ناصع وأهدابها تنسدل بتلقائية دون أن يُثقلها طلاء دبق أو مسحوق فوق الجفنين. ثوبها أخضر داكن، ولولا لمعة خفية فيه لقارب مراييل بنات المدارس الصغيرات؛ كامل الأكمام، يتلاحق صفٌّ من الأزرار الصغيرة في منتصف صدره منزلقة حتى تصطدم بحزام مذهب رفيع يلف الخصر بإحكام معلنًا عن دقته ورهافته، وأشياء كثيرة خبيئة. جلسَتْ إلى الطاولة فاختفى خصرها وتجلى وجهها الخجل متهللًا كما يجب لبنت لطيفة عذراء تحضر زفافًا.

فقدت رغبتي في الانصراف.

تتلألأ في مواجهتي مثل نجم سهيل، كيف أواجه لمعان عينيها بعينين مختلفتين في لونهما؟ لمستُ نظارتي متأكدًا أنها فوق عينيّ تستر عاهتي، استرقت النظر إلى البنت حتى قويت عزيمتي وما عدت قادرًا على إزاحة ناظري عنها، لقد رأيت شقراوات يلمعن تحت أضواء «النيون» في أوروبا، تفحَّصتُ سمراوات تبرق أطرافهن من فتحات أثوابهن الفاضحة كسيوف مشرعة، لكني لم أقع على نجمة بهذا البهاء من قبل.

انشغل حضور الحفل بالنساء الفاتنات عاريات الأكتاف اللواتي يرقصن حول العروس، جميعهم حمقى إذ لم يلتفتوا إلى النجمة الفريدة الجالسة قريبًا مني، ولا راعهم حسنُها، كأنها بثوبها العادي ووجهها الخالي من الأصباغ مجرّد بنت عادية في أعينهم. اكتشفتُها وحدي، وأعدتُ تشكيلها كما يلزم. سَحبتُ خصلة من شعرها لتنسدل على وجنتها اليسرى، رددتُها بأنفاسي لتتموج على كتفها، غيرتُ لون أحمر الشفاه إلى قرمزي مثير، ومددتُ خطَّ الكحل فوق جفنيها إلى الأعلى فصارت نظرتها لعوبًا، فككت أزرار ثوبها المحتشم وحررت ذراعيها النحيلتين، شكَّلتُها لأراها فاتنة الحفل، أو لتكون امرأتي.

تدربتُ على كبح مشاعري، بل إني لا أتذكر أن لديّ ما يسمّى «مشاعر» تجاه النساء، فلا جولي بعِشرَتِها المحايدة ولا الغانيات بألاعيبهنّ صنعن فارقًا في حياتي، لم تلتمع امرأة أمامي حدّ العصف بفؤادي، أعوي مستفردًا بنفسي، لكني أتحوَّل إلى تمثال شمعي في العلن، لولا ما تركته الشمس

من صباغ في صدغيّ لكنت لائقًا لمتحف مدام توسو. لا تعكس ملامحي حزنًا ولا فرحًا، ولا يتغضَّن جبيني غضبًا ولا يرتخي شدقاي تعجبًا، لا تتسع حدقتا عينيّ، ولا أُسبل جفنيّ كما العشاق حتى حين أغرّر بالنساء. ولكني في مواجهتها، لم أتمكن من إرخاء جفنيّ، حدقت مندهشًا جائعًا حتى أربكتُها، لستُ عاشقًا ولكني مفتون كما يلمَح جواهرجي قطعة ثمينة تحتاج إلى صنفرة. أنا البدوي الذي لم يقل كلمة غزل في حياته ولا تصرف كدنجوان مع بنات الغرب والعابرات من النساء، البدوي الذي لا يمكنُهُ خفض نبرة صوته، ولا يفسح لأنثى مساحة لتجلس مكانه. كنت ألينُ وأنتشي وأتصوَّر كيف لهذه الماسة النقية أن تشعّ بأنصع مما تلتمع عروس كايد الثرية ليلة زفافها. يمكنها ببهائها المستتر أن تسحقها تمامًا، مثل هذه المرأة تلزمني في سباق التنافس المرّ بيني وبين ابن الشيخ الذي يطير عاليًا ورفاقه يرفعونه فرحين بالعريس مهلّلين لليلته البهيجة. لقد علمت منذ النظرة الأولى أنها امرأتي.

بينما راح شقيقها يلتهم الطعام في صحنه غافلًا عما يدور منشغل النظرات بأكتاف الصبايا العارية، لم تفت والدها المحامي الكهل نظراتي لابنته، وأظنّه كان يُقيّم الموقف بميزان دقيق، فأمامه رجل أعمال أعزب يملك مصنعًا للشوكولاتة، يتشارك والعريس بحمل ثقل اسم العشيرة. انشرح أبوها وبدا مستبشرًا بالخير طوال السهرة، مرخيًا عجيزته بأريحية فوق الكرسي المذهَّب. أعجبه ما تركته ابنته من أثر في البدوي الذي

يصعد نجمه متمهلًا. لعل المحامي عبد الرؤوف الأمين والد تلك الزهرة الفواحة شرقيٌّ في أعماقه، يُصابُ بالهلع إذا نظر رجل إلى حصّته من النساء، إلا أنه في نهاية المطاف محامي، براغماتي، قرر تلك الليلة ترك الفتنة تجري مشعلة النار بين وجهها وعينيّ المقنَّعَتين بالنظارة، حدس أن مصير الفتاة مرهون بنوع الرجل الذي تستطيع الإيقاع به وثقله.

لكنَّ الزفاف انقضى دون نتائج تُذكَر، والنار المتأججة التي راقبها المحامي متجاهلًا مضت كبرق لا يتبعه مطر. يئس الأب من العريس المحتمل لابنته، وتلاشت النشوة التي حلت بي ليلتها.

بعد أشهر قليلة طرت إلى العقبة، في الظاهر، أنهي التخليص على شحنة مسحوق الكاكاو التي استوردتها من ماليزيا، وفي الزاوية الأكثر عتمة وسرّية وخطورة أُشرف من بعيد على تخليص شحنة عربات الأطفال التي حُشرَتْ في مواسيرها الرفيعة لفافاتٌ لحبوب الهلوسة ستُحمَل بكل براءة الأطفال في شاحنات تقودها مباشرة من العقبة إلى الجزيرة العربية. في مثل هذه المواقف وما يرافقها من شدّ عصبي، يفقدني تركيزي صوابي، وأحاصِر قلقي فلا يجنح بي، ولا ألتفت لأمرٍ خارج دائرة الضوء الماثلة، لكني فجأة كدت أطير.

رأيتها مجددًا على حد الماء فوق الرمل الأصفر الدافئ للشاطئ المخصص للفندق الذي نزلت فيه. وضربتني فتنتها كأني لم أنسَ أو أتناسَ، جسدها مستلقٍ باستسهال تحت سياط الشمس، تُقلِّبه مثل حورية

بحر آمنة من أعين الفضوليين. رغم السفر والغرق في بيوتات المتعة وكثرة ما ضاجعتُ من أجساد بيضاء بضة أو خلاسية مفتولة، أو صفراء هشة، فقدتُ اتزاني أمام جسد جميل عارٍ. كان بمقدوري تكرار اللعبة التي مارستها ليلة الزفاف، تجريدها من ملابسها الشحيحة عبر انزياحات ذهنية طفيفة لتصير مكشوفة أمامي بالكامل، وجبة جاهزة للالتهام، تحرَّكت مئات الديدان في صدري صاعدة إلى رأسي، ديدان من رغبة هائجة، نهم لتذوق تلك الفاكهة التي نضجت على حين غرّة. تحوَّلت رغبتي إلى سعار حقيقي لم أعرفه من قبل، ولا حتى مع الرغبات التي تقتات منّي كحمى المنافسة مع كايد وصعود سلم النجاح قفزًا، لم تعد لي غاية سواها، إذا لم أنل تلك المرأة فإن حياتي ستتقوض كما لو كانت بيتًا خربًا من هراء بلا أعمدة. كانت برفقة والدها وشقيقها الذي بدا جروًا صغيرًا يتبع سيِّده، وقد أقبل عليَّ المحامي بلهفة في محاولة مكشوفة لاصطيادي، رغم أنه لم يكن بحاجة إلى مناوراته الرخيصة.

ما إن عدت إلى عمان حتى لحق بي عبد الرؤوف الأمين، وفق ميعاد حددناه مسبقًا على شرف جسد ابنته الممدد يستجلب أشعة الشمس تطليه بلون برونزي. جاءني حاملًا ملفًا كبيرًا يوضّح سيرته العملية في شركات الشيخ وولده كايد من بعده، جلس مقابلي قلقًا متقطع العبارات وهو يعترف بأنه لم يكن الأفضل في مجموعة المستشارين القانونيين الذين يستعين كايد بهم، وله أعذاره، فموت الزوجة كبّده عناء العناية

بالبيت وبولد مراهق وابنة شابة. اعترف حزينًا بعدم قدرته على متابعة المستجدات وعجزه عن قراءة التقارير الجديدة والكتب السقيمة المتورمة، وكيف ينخر الاستيقاظ المبكر في رأسه صداعًا لا يمكنه التخلص منه قبل انتصاف النهار. بدا مهيض الجناح في شكواه يستجدي تعاطفي باطِّلاعي على الظروف العائلية المواتية، محاولًا تصحيح وضعه المهني. تحدَّثَ المحامي الألمعي بالتفاصيل عن صدمته؛ إذ لم يتوقع استغناء كايد عن خدماته، إكراما لطول العشرة. بدا ساذجًا رغم ممارسته مهنة لا تليق إلا بالثعالب، ظنّ أن الشيخ كايد سيتركه في منصبه مستشارًا لشركاته إلى أن يعتزل هو بنفسه أو يتولاه الموت، وقد خاب ظنه حين تسلَّم كتاب الاستغناء عن خدماته مصحوبًا برسالة شكر رقيقة توجِّهه لاستلام مكافأة متواضعة من شؤون العاملين. دارت الدنيا به، كأن العالم ينهار، فالبنت لم تتزوج بعد (قالها مرارًا)، والولد في المرحلة الثانوية، ومدّخراته لن تكفيه في حياته المقبلة. حاول لمرات لقاء الشيخ والتوسل إليه ولم يفلح، تجددت آماله حين التقاني في العقبة. أنا من سيعينه إذن! هرع إليّ واضعًا حالته بين يديّ آملًا أن أكون جسره للعودة إلى منصبه. رجل صغير يتسوَّل بطريقة قميئة، لم أسأله وهو الشاكي كيف تدبَّرَ إجازته في أفخم فنادق العقبة إذن؟ راح عقلي العبقري يحسب بسرعة مزايا الاستعانة بهذا الرجل والاقتراب منه، مقابل مرتب بخس يمكنني التسلي على أسرار كايد ومكتبه الناجح. لا أؤمن بمكتب محام ناجح دون

تجاوزات وألاعيب تشبه ألاعيب الساسة. ابن الشيخ العزيز الذي بات يسمّيني ابن عمه سيصبح عجينة بين كفَّيَّ، وستكون حكاياته السرّية صحن بزر البطيخ المملح الذي تتسلى عليه النسوة في ليالي الملل، وللحق لم يكن هذا السبب اللئيم وحده دافعي لاحتمال الرجل، لكن ذكرى البنت وهي تبرق في فستانها البسيط يوم الزفاف وثوب السباحة فوق رمال الشاطئ غفرا له.

أمهلته يومين لتدبّر الأمر واعدًا بالخير، وجاء الخير أكثر مما تمنّى، عرضت عليه الانضمام للجهاز القانوني في مصنعي. طار عبد الرؤوف غير مصدق ما آلت إليه الأمور، وظلّ منتشيًا مزهوًّا حتى بعد أن أدرك عند الالتحاق بالعمل أن الحاجة له وهمية. قدَّرَ أن شرارة العرس وذهبَ رمال العقبة لم يضيعا سدى.

تقدمت طالبًا رجاء للزواج دون أيّ طقوس، لم أصطحب أهلي ولا قدتُ رجال العشيرة في جاهة كبيرة، فقط زرت بيتهم أحمل صندوقًا من الشوكولاتة وباقة ورود حمراء. وبينما والدها يتقافز فرحًا مرحِّبًا مستبشرًا، راقبتُ مندهشًا ملامحها المحايدة وهي تُقدِّم لي فنجان القهوة وتوافق على طلبي ببرود كأنها تتمنَّنُ عليّ. كنت على يقين بأنها ستتحوّل إلى أنثى طرية بعد حين، لم تخدعني صرامتها ورزانتها المدعاة.

تحوَّلت خلال أشهر الخطبة من فتاة خجلى إلى امرأة وارفة مكتملة الجمال، باتت تبتسم وهي تفتح الباب لي، تجاذبني الحديث وتضع

حبات الشوكولاتة بين شفتيها بتروٍّ وتطبق عليها لتذوب، تغويني بحركات بسيطة لا يمكن اتهامها بها. صارت ترتدي ثيابًا أنيقة، لم تفارقها بساطتها مباشرة، ولكن ثيابها مالت إلى الفخامة بأناة وتروٍّ كأنها تتهيأ للمركز الاجتماعي الجديد. اختطفتُها من بيت والدها المحامي المنبهر بنسبي وعدت بها إلى شقتي الصغيرة، لتصير امرأتي الشرعية التي أُفرغ فيها جنوني. ليس اختطافًا صريحًا، فقد مررتُ بكل الإجراءات التقليدية التي يفرح بها الناس، كتبت عقدًا شرعيًّا موثقًا وأقمت عرسًا فخمًا أذهل المدعوين. كان أول المدعوين إليه كايد وزوجه التي ظلت تبتسم بخبل وبطنها يرتفع أمامها حاملًا ولي عهد لابن الشيخ، بينما عينا زوجها تعكسان دهشةً واستنكارًا أرضَيا غروري، في حين جلس أبي في القاعة مصدومًا صامتًا تائه النظرات فاغر الفم، رغم أنه ارتدى ثوبًا وعباءة جديدة وحطَّةً وعقالًا.

تصنع النقود المعجزات، أنجزت في شهر العسل أكبر صفقة كوكائين في حياتي، اجتازت العالم من كولومبيا حتى العراق ولبنان، دون أن تشعر عروسي بشيء، فقد غرقت بالعسل ودبق ذكورتي ومشترياتي المبهرة. التقطتُ كل ما كان مبهرجًا لامعًا وراء زجاج الفاترينات التجارية، غمرتُها بالشموع تتراقص نيرانها بين صحن الجمبري والستيك الشهي، دوَّختُها بباقات الأزهار التي تقتحم غرف الفنادق التي نزلناها، هكذا لم يتسنّ لها

الإحساس بالصفقة الجهنمية التي أبرمتها في ردهات الفنادق، وطارت بين مشترياتها الثمينة في حقائبها الكثيرة.

رحلتي مع رجاء بدأت بوعد لبناء فيلا تليق بها، ابتعت لها المجوهرات، وذهبًا مشغولًا بأحجار ملونة، في ما بعد سأشتري لها السولتير المرصّع بالماس الحقيقي، ومجوهرات بالفيروز والياقوت. لن أبخل بما يُبرزُ جِيدَها البلّوري الطويل أو جسدها الرشيق، لخاصرتيها النحيلتين سحر خاص كأنها ستنكسر، خاصرة كهذه قد تقتل رجلًا. كانت أمي طويلة نحيلة بلا خصر كسعفة سقيمة، وكانت جولي عادية لكنها تفتقر إلى وسط تتمايل حوله، أما رجاء فيتلوّى وسطها ممشوقةً كجذع نخلة فتية. فتنة مبهرة أطاحت باتزاني أو ما أدعيه من اتزان، قللت من شأن النسوة الجميلات اللواتي عرفهن فراشي. فقد أمتعتني منذ الليلة الأولى، مذ سحل خصرها عن ساعدي وتأوَّهَت، سميتُ إقبالي عليها حبًّا. خفتُ الإفصاح عن العنف الذي يقود ولهي فلا يروق لها أو تفزع، ولكنها لا تفزع. تسترخي فتساعدني على الاسترخاء، كان يمكن لفتنتها الطاغية أن تكسرني، إلا أنني وزعت طاقتي بعدالة بين بناء إمبراطوريتي في المصنع وتجارتي السرّية وسرير الزوجية، تفاديت الإفراط فأنقذت نفسي من الوقوع في عشق يوهن قواي.

تعجلت رجاء بناء الفيلا في عبدون، ظلت مضطربة ملولة في الشقة الصغيرة في الرابية، سمَّت المنطقة سوق بغداد، وأرادت الابتعاد سريعًا

إلى الفيلا التي تتيح لها التحوُّل إلى سيدة مجتمع. بنيتُ لها بيت الزوجية بمزاجٍ عالٍ، مبتعدًا عن التفاصيل الكلاسيكية الفخمة التي ميَّزَت فيلا كايد، كل ما كان هناك وجب تغييره هنا، حتى لو وقع بناء بيتي الجديد في متناقضات معمارية محدثًا خللًا جماليًّا فادحًا، لعلّ العيوب توقع الصدمة في عيون الناس، وإن كنت واثقًا من أن أحدًا من معارفي لن يجرؤ على مكاشفتي بتلك العيوب الهندسية التي تخدش الجمال، تمامًا مثلما يتفادون الإشارة إلى اختلاف لون عينيّ. أسخر من رؤية عجز الناس عن إظهار نفورهم إذا تعلَّقَ الأمر بثري -وقد صرته-، ينقلب الاستنكار والنفور لديهم إعجابًا ومديحًا مجانيين لا يليقان بقاماتهم. أقهقه في أعماقي، فصدم ذائقة تلك الطبقة المنافقة ممتع، ويترك في نفسي نشوة طفيفة مثل اتصالي بامرأة حسناء.

سعت رجاء للانتقال إلى معقل أثرياء عمّان، أشرفَت على كل صغيرة وكبيرة، واندفعَت تتابع كأنها ليست الصبية البسيطة التي صادفتُها في ثوبها المحتشم في حفل زفاف. تكشَّفَت عن امرأة ناضجة تجيد إدارة الحياة. أعجبني هذا أيضًا، لم أعترض على التفاصيل: المساحات الوارفة داخل البيت، الرخام الإيطالي، باب خشبي أشقر صلب منحوت بتصاميم هندسية شرقية، أحيانًا أحتاج إلى إثبات إنسانيتي وتحضّري الاجتماعي لنفسي، لهذا السبب تحديدًا تركت لعروسي تأثيث داخل البيت كما تشاء. راقبت فرحتها وحماسها واندفاعها وهي تُنسّق الألوان وتوزع القطع في

أماكنها وتسدل فوق النوافذ ستائر الدانتيل التي لم تعرفها خيمتي. أعترف أن ذوقها يفوق بيئتها ويغاير الأثاث الكئيب المرصوص في صالون بيت والدها، لعلّ ما أُغدقه من نقود مكَّنَها من إطلاق طاقاتها الحبيسة، هناك أدلة كثيرة في الحياة تؤشر على دور المال في تجميل الحياة، ولو أنكر الفلاسفة ذلك.

ركزتُ اهتمامي على باب البيت الخشبي المهوجني الأحمر، المنحوت بتصاميم هندسية شرقية، ثم البوابة الحديدية الواسعة التي تسمح بمرور المركبة، تُفتَح وتُوصَد إلكترونيًّا، بضغطة زر أو من قلب السيارة بجهاز الريموت كنترول. بين الباب والبوابة سهل من الحشائش، يبدو فراغًا أخضرَ مهدرًا، لا وظيفة له إلا أن يكون إضافة للجمال ورفاها للعين، وهذا لا يعنيني، فهذه المساحة عندي ليست ما يراه الآخر، لكنها فاصل واسع يحول بيني وبين العالم الخارجي. أحيط قلعتي الداخلية الحصينة بمرج أخضر كأنه خندق بين الباب والبوابة؛ مسافة هي زمن أبتاعه يبعدني عن الآخرين، وأمتار شاسعة تمنع الاقتراب منّي على حين غرّة. لهذا تُبنى الأسوار والأبواب والبوابات، بل النوافذ أيضًا، كل ما نظنُّه جسرًا بيننا وبين العالم، أو معبرًا للزوار والأحباب، ما هو إلا عكسه، أسوار وخطوط حمراء، ودرع نحمي به الداخل من التلوُّث الذي تتركه أحذية الآخرين حيث يكونون. نحن لا نقطع جسرًا لنلتقي ولكننا نقيمه

حدًّا فاصلًا، لا نخرج من الأبواب إلى العالم، بل نختبئ وراءها منه، ونحكم رتاجها خلفنا. ألم يلج البشر الأوائل الكهوف هربًا من الضباع؟

مع ذلك استقطبَتْ رجاء ضباعًا كثرًا إلى بيتي، اجتازوا مرجي الآمن إلى قلب البيت، انقلبت حياتي منذ تزوجتُها إلى نقيضها، صارت لي حياة اجتماعية صاخبة تستعرض فيها مهاراتها وبيتها وثرائي. زارني عملاء في المصنع ورجال أعمال، موظفون في مواقع حسّاسة، ومحامون يقرِّبني منهم صهري، وأبناء عائلات عريقة صاروا جيرانًا، رجال قصار ونساء منفوشات بثياب فارهة، وفساتين مشقوقة حتى الأفخاذ ونحور مزدانة بالمجوهرات.

تُسكَب الشمبانيا والنبيذ الأحمر والفودكا والجن بغزارة، رجاء لا تُقدِّم البيرة؛ تعتقد أنها مشروب سوقي يليق بالبارات الحقيرة. نالت زوجتي اعتراف الجميع بأنها امرأة شديدة الأناقة. توهُّجها الذي لا تخطئه عين، وأناقتها ولطفها وكرمها، كلها تفاصيل يمكنني إرجاع الفضل فيها إلى دخولي حياتها. نعم، لقد خطفَتْ قلبي لحظة التقيت بها، لكنها قد تنطفئ كسراج نفد زيته لو لم أكن هناك في تلك اللحظات المجيدة. هكذا أقنعتُ نفسي ووزنتُ أهميتي في حياتها، أبتهج حين أرى أثري فيها، وأكثر، أستمتع بصورة خفية لئيمة بمتابعة والدها المحامي الذي هيّأتُ له مكتبًا فاخرًا في الدائرة القانونية المصطنعة التي ألحقتُها بمصنع الشوكولاتة من أجله خصّيصًا. أعددت مكتبًا فخمًا وسكرتيرة وخزانة

خشبية تُحفَظ فيها ملفات المصنع. في هذا المكتب بالتحديد أُحبُّ انعكاس صورتي، مثل مغرم برؤية محبوبته، أو مجرم لا يقاوم مشاهدة جثث ضحاياه مرة بعد الأخرى، أُحبُّ مراقبة صهري المحامي، تعجبني صورة القانوني الهمام تهتز، تنتفخ بطنه وتنحني رأسه في زاوية بالكاد يمكن قياسها. يتموَّج صوته كغانية تغنج إذا ما دخلتُ عليه، فأنا وليُّ نعمته ووالد زوجته ومالك المصنع. يتحوَّل المحامي الثرثار إلى رجلٍ ليِّنٍ خافت الصوت كأنه تابع مخصي. يحوم حولي كما لو أنه سيقدم على تنفيض معطفي، يضحك حين لا يكون هناك لزوم للضحك، يقضي نهاره يُقلّب ملفات وهمية كأنه سيعمل حقًّا. الأراجوز عبد الرؤوف مسلٍّ حقًّا، خاصة وهو يهمس لي بولع كايد بتعاطي الهيروين، كما أنه مفيد عندما ينتهي إلى إشغال منصب منظِّم حصيف لحفلات ابنته الفاخرة، متعهد يراجع قائمة الضيوف وتجهيزات الطعام والدعوات. لن أعتذر كوني أتلاعب به لقاء راتب هزيل، أتسلّى به، أهزأ بعلمه ومكانته وأستمتع بالكوميديا التي تنطوي عليها حركاته. وفي مكان قصي أطرد صورة تحاول التسلل إلى الذاكرة، حين يرن صوت فناجين القهوة بين أصابع أبي.

غارق في رحيق الكاكاو اللذيذ البعيد عن الشبهات، أترك مهمّة الاتصالات المريبة لحمدان الذي يتحرك اسمًا افتراضيًّا على الشبكة العنكبوتية. إنه طيف افتراضي يقدم خدماته المميزة لكايد، وينقله من

متعاط معتدل إلى رجل كريم على وسطه وصحبه، يوزع بينهم رزمًا صغيرة للمسحوق الأبيض النقي، وبكثير من الفحيح يقنعه أن يصبح الناقل الرسمي للبضاعة الفاخرة القادمة من بيروت والعابرة إلى السعودية. هأنذا مثل آل باتشينو؛ أمدُّ إمبراطوريتي الرمادية لتشمل بالعطف فردًا من عائلتي، وإن لم يعرف هو بالأمر، يعمل من أجلي ويتداول بضاعتي، يطير كايد مرتين أملًا في لقاء حمدان الإماراتي ولا يلتقي إلا برجل أفغاني يمثّله اسمه عبد الكريم. إذا حدث أن تورّط اسم البيرق لدى جهات أمنية سيجدون أمامهم كايد لقمة سائغة، عندها سأتغاضى عن كل ما علَّمتني إياه أفلام هوليوود عن ولاء العائلة لعملها المشين وحماية زعماء العصابات لصغار الأقارب العالقين، وسألحس في العتمة ما علق في أصابعي من حلاوة الشوكولاتة.

الفقراء أمثالي، البؤساء الذين قضوا طفولتهم في ذلة وتوحد وعزلة، الذين سرَت كراهية الكون في أوردتهم بدلًا من الدم، هؤلاء، تغيّرهم الشهرة والمال والأضواء المتراقصة في الشاشات أو الحفلات. يتبدَّلون كجلد ثعبان يُنزع في كل موسم، وحتى لا أُسخَط إلى هذا الثعبان الزاحف على بطنه، أحمي فرادتي وفردانيتي، لا تغريني شهرة الساسة ولا تلعب برأسي الأوهام حول سطوة أصحاب المال. يطيب لي مراقبتهم وهم يلعبون أدوارهم في الحياة مثل ظلال تتضخَّم وراء لهب النيران أو تتحجَّم في مساقط ضوء قادم من بعيد. يمكنني بنقودي المكدسة في البنوك شراء

اليخوت والبيوت المنمَّقة الملحقة بالملاعب والمسابح في عواصم الجمال. ربما بيت في باريس وآخر في البندقية، لكني لا أقع كالأغنياء في فخ حمّى الامتلاك، حذري ثم بلادة حواس التذوق والمتعة عندي تنقذني من التبذير والسَّفَه. أحفظ نقودي الكثيرة كحبات المطر حبيسة في البنوك البعيدة والملاذات الآمنة. بل أظن أني أفضت وبذرت حين اقتنيت بيتًا وسيارات في عمان، إضافة إلى زوجة جميلة، منحتُها هامشًا تُبذّر من خلاله بما لا يزيد على إمكانيات صاحب مصنع للشوكولاتة. أرضاني ما اقتنيته ولكني لم أنتش بالمتعة البتة، ولا أظن أن المزيد من تبديد ما أجنيه قادر على إصلاح ما فسد فيّ من إحساس بالجمال واللّذة، أخاف من خطوة حمقاء أبدي فيها ثرائي الفاحش، أخشى أن أخطر كطاووس، فتنكشف لعبتي السرّية التي أحتال بها على العالم بأسره. لم تصبني لوثة استعراض ثرائي كما حدث مع كايد وهو يشتري يختًا فخمًا يربطه في ميناء العقبة ليستعمله مرة أو مرتين في العام، حرصت أن يظلّ حجمي معقولًا غير لافت لأنظار الناس، مجرّد رجل مصنع الشوكولاتة الثري، وهذا يكفيني.

وفي هامش موازٍ، تدفقت أسلحتي الصغيرة أدعم بها الأبطال القادرين على التضحية بأنفسهم من فدائيين وجهاديين وثوار ومتمردين ومتآمرين، أو خلايا نائمة بانتظار لحظة الصحو المقدس، أو مليشيات الدول التي تستعين بها لتنفيذ المهام القذرة خلف خطوط جيوشها الوطنية الشريفة.

أنا من يدعم كلّ هؤلاء لإنجاز مهامهم المقدّسة، تلك التي ينخرطون فيها باسم الوطنية أو الحرية أو فرض النظام والقانون أو الديمقراطية اللعينة. مَن البطل في كلّ هذه الصراعات إذن؟ لست مسؤولًا عن المبررات والخفايا التي تجعل الصراع حقيرًا منحطًّا، فأنا قطرة في بحر متلاطم. في أغلب الأحيان لا يترك لي أباطرة السلاح في العالم مساحة شاسعة أتحرك فيها، يضعون أيديهم على الجانب الأكثر ربحًا ويزيحون صغار المغامرين أمثالي عن الدرب. لهذا ألاعبهم، أتخفّى عنهم أولًا قبل الاختباء من سلطة القانون، ولأن دوري أصغر من أن يُرصَد فإن الشريحة التي أتعامل معها أهون من أن تقيم حربًا أو تغيّر مسار العالم الذاهب إلى الهاوية. زبائني عصابات صغيرة، أكثر براءة من الدول العظمى والدول الغبية، مجرّد أوباش متعصبين أو مكتئبين لا يعرفون ما عليهم أن يفعلوا بحيواتهم الثقيلة، أو بشر خائفين يختبئون كالجرذان محصَّنين بقليل مما ابتاعوه مني. أعرف ويعرفون أنهم لن ينتصروا في أيّ قضية، لكنهم يحاولون وهم يقضون على السلام والاستقرار في مجتمعاتهم الهشة، ليس مهمًّا معرفة هويّاتهم ومراميهم كما ليس مهمًّا أن يعرفوني، تنتهي علاقتي بهم بانتهاء الصفقة، ولا أسعى قطعًا إلى الاطلاع على تفاصيل ما فعلوه بأسلحتي الخفيفة والثقيلة. لا تهمّني النتائج مهما كانت دمويّة، لست مسؤولًا عن تكاثر أعداد الضحايا، هل أحصى الطيار الأمريكي بول تيبيتس أعداد ضحاياه حين ألقى فوقهم وهو يلهو قنبلته التي أسماها

«الولد الذكي»؟ سقطت من طائرته إلى فضاء هيروشيما ومضى هو إلى مقرّه. لماذا عليّ أنا إذن عدّ آثامي الصغيرة؟ ثم كيف أفرز ضحاياي من ضحايا الآخرين تجار السلاح ومروّجي المخدرات والدكتاتوريين الذين يتحكّمون بقرارات العالم وانحيازه السياسي. هذا كنزع القطن من الشوك؛ مسؤولية لا تعنيني، مسؤوليتي بسيطة مثل رشفة ماء، تتلخّص في تأمين السلاح في يد من يحتاجه ويملك ثمنه ويندفع لحتفه أو حتف خصمه. أنا مجرّد وسيلة نظيفة من رائحة البارود ودبق الدم، لا إثم يقع عليّ، فللناس عقول وإرادات واختيارات واعية أو حمقاء. الأهم والذي لا يكاد يعيه الواعون، أني أقدّم للباحثين عن الشهرة خدمة كبيرة، فأنا الذي هيّأ الأسباب كي يصيروا نجومًا يسدّون الشريط المستطيل المتحرك المضيء في أسفل الشاشات الفضائية. يطيرون بما أقدّمه من وسائل ليعتلوا الفضاء نحو الأقمار الصناعية، ثم يعودون إلى الأرض مادَّة طازجة كفاكهة شهية حتى لو كانت الصور لجثتهم. أنا مَن يمهّد الدرب لتلك البطولات الخارقة ولا يعنيني لون الرايات التي رفعوا والشعارات التي أعلنوا، هذه تفاصيل لا تغيّر من النتيجة، لدينا قفلة مريعة لحكاية مشوقة، وهذا ما يهم.

إذا لم أقم بمهمتي فإن سواي سيقوم بها، رجال يشبهونني ويستميتون لسرقة حصّتي بغية التمتع بمكاسبي، وقد يكونون من البلادة والغباء حدّ كشف أوراقهم وتوزيع صورهم البهية على الصفحات الأولى للصحف

حول العالم، تباهيًا أو ثقة مفرطًا بها، بينما أظلّ الأكثر حرصًا والأذكى، الحرفي العبقري الذي يعرف كيف يدسّ السمّ في العسل.

أتحرّى عن الرجال الذين أتعامل معهم، بدءًا من الجنائني في بيتي، والخادمة في مخدعي، والسائق، والسكرتير، والحارس، والمساعد، والمحاسب، والفتيات الصغيرات اللواتي يُحكمن لفّ حبات الشوكولاتة في مصنعي، إلى المتنفذين في صفقات السلاح، والقتلة المأجورين التابعين للدول، وأولئك العاملين على عهدتهم الخاصة. أعرف أين أسدّد سهامي ومتى، أقيس تدفّق عداوتي أو محبتي والمقدار الذي يُستحسَن إغداقه من هذه أو تلك. أعرف متى عليّ التوقف عند حدّ والانسحاب بِنيَّة معاودة الهجوم، لا أجازف بحماقة ولا أحرق أوراقي في معركة خاسرة.

لي حاسّة شمّ مثل خُلدٍ شرير، أتسقّط فوح الكراهية والغضب، الانتقام والثأر، الصراع على الأرض والماء والمناصب والمكاسب. أختار بعناية المهمّشين المنسيين؛ فهم أعلى غضبًا وأكثر قدرة على الدخول في نفق الموت بصلافة، لا يأبهون للخسائر البشريّة ولا تلك التي تطال العمران وتترك ندوبًا في ذاكرة الناس. كل شيء يمكن معالجته، فمن ماتوا إما خونة ومندسون، وإما إرهابيون، وإما شهداء ومقاومون. كلّ شيء تُعاد تسميته ببراعة، وكلّ هَدمٍ يُعاد بناؤه عبر سماسرة آخرين، يستبقون الخطوات البليدة التي بنت الحضارة عبر سنوات طويلة من

التراكم البطيء. لبناء الحضارات الجديدة لا بُدَّ من إيقاع جديد يشبه إيقاع الراب والبوب؛ لن يُفيد جر الربابة الحزين. لا أحاسب نفسي إذا وقع ناظري على صورة مدمن يُحتضَر، أو جثة قضت برصاصة مسدّدة أو طائشة، وإن كنت لا أحبذ مشاهدة وجوه ضحاياي في رحيلهم الأخير ولا الأول، لا أسعى إلى لقائهم ولا مقابلتهم شخصيًّا. بيننا حبل طويل من السماسرة العارفين بأدوارهم وأولئك الأقلّ وحشية، كلّ هؤلاء ينقلون إلى الضحايا موتًا محتمًا، والموت حق، له أشكال متباينة مثل تنوع الزهر. حين تُسلَم الروحُ مبتعدة عن الجسد المسجى على السرير، وتنغلق الأجفان إلى الأبد، يُقال هذا هو الحق؛ توازن الحياة والموت، مصير الإنسانية بلا اعتراض، حكمة الطبيعة والقدر في غربلة الخلق، يموت البعض ويولد آخرون ويكتمل المشوار الذي لا نهاية له، أحتسب فعلي وفعل سماسرتي الأوباش إسهامًا خجولًا في تحقيق توازن العالم.

التقيتُ في صولاتي وجولاتي بين العواصم التي توزعت مخدراتي وأسلحتي المهربة، كثرًا يلحقون بي طالبين رضاي، جامعين الفتات خلفي بِشَرَهٍ. لا أذكر أنني اصطدمت بمن عفَّ أو استنكر وتباعد، كأنّ البشر مجبولون على انتظار فرصة الشرِّ السانحة، فماذا لو قدَّمتَها للآخرين على طبق من فضة. إذا صادفني رجل صلب أهدّ جداره العالي بأناة وصبر، كما تفعل نقاط الماء الدؤوبة بالجدارن الحجرية. لا أحاسبهم ولا أسأل عن دوافعهم، فكلّ العلاقات عابرة متقطعة لن أرتبط

بها بوثاق، لكني قطعًا أهزُّ رأسي ثملًا كلما أحنى أحدهم رأسه مقبِّلًا كفّي.

أعامل الناس بالمنطق، بالشكِّ أولًا وأخيرًا، إذ يستحيل وجود براءة مطلقة أو حتى متوازنة في الكون، فكل من أعرف لهم وجوههم القبيحة: المختلس الذي يرتدي بزة عالية الثمن، والجميلة التي مسحت بثرةً قبيحةً في منتصف وجنتها، والأجنَّة الذين تخلَّقوا قبل الوثائق الشرعية، والمغتصِب الذي يجيد قيام الليل. من كان بلا خطيئة فلينظر في عينيّ دون أن يرمش. ولأني أفهم الخفايا التي يخبِّئها البشر بسذاجة تحت الثياب والابتسامات، ووراء البيوت والسيارات الفارهة، وبين متون الأدعية والتسابيح وفي صناديق التبرع الخيري، بل وتلافيف القانون وتحت أغطية حقوق الإنسان، فإني لا أثق تمامًا، ولا حتى جزئيًّا. أُدير أعمالي وفق ميزان دقيق، أقدّم حدسي ومصلحتي ولا أترك لأهوائي التلاعب بقراراتي. أحوّل الخصم صديقًا إذا شاءت المصلحة، ويصير الصديق منبوذًا معاديًا إذا اقتضى الأمر. أُعمل حواسي كما حيوان في غابة يتوجّب عليه الحفاظ على حياته بالحذر والشجاعة والحيلة. معركة وجودي تُطيّر النوم أحيانًا من رأسي، كما تسفح مزيدًا من العرق عبر مسامات جلدي.

لم تكتشف رجاء غزارة تعرُّقي قبل الزواج، كنت حريصًا على إبقاء مسافة تباعد بيننا خشية أن تشمَّني. بدا تصرّفي تأدُّبًا واحترامًا، وعندما صارت امرأتي بين ذراعيّ أعانقها بعنف ونتقلَّب معًا، تقبَّلَت الأمر الواقع.

لم تَفُهْ بكلمة، ولم تتأفَّفْ أو تبدي امتعاضًا، كأنّ حاسة الشم ميتة لديها، لا تشم ولا تلمس ولا تُحرَج من تبقُّع قمصاني. تسارع إلى إلقاء ما اتسخ في سلال الغسيل دون الإفصاح عن تقزُّز عابر، تقدّم لي قمصاني مكويّة عابقة برائحة نظافة لطيفة كأنّها فوح شجيرة فلّ. هل كانت ابنة المحامي، تربية الطبقة الوسطى، امرأة مهذبة فوق العادة إلى حدّ يثير الشك في كونها بشرية من لحم ودم مثلنا. أم كانت باردة غير مهتمة، ولا مبالية حدّ الاستهانة؟ لم أتمكن من حسم رأيي فيها.

لا أنكر أنها بذلت جهدًا في أنسنة العلاقة الجسدية بيننا وتحويلها إلى طقس عبادة. وفي غمرة اللّذة يلوح لي أنني فوتُّ طيران الروح الذي حازته، الملعونة الباردة تستمتع أكثر مني! أطرد هذا الهاجس العابر الذي يعكّر متعتي مكتفيًا بامتلاكي جسدها، أفزّ سريعًا هاربًا من السرير قبل أن تلتقط فتحتا أنفها الرائحة التي بدأت تفوح من جسدي، ينمو الحب خجولًا هلوعًا مضطربًا، مثل عرق نعنع واهن في صبّة إسمنتية.

ساعدتني علاقتي الجسدية المثالية برجاء على الاكتفاء، لم أرغب في نسوة أخريات، على الأقل حين تكون موجودة معي في بلد واحد. أمّا حين أسافر وحدي باسمٍ زائف، أتحوَّل إلى آخر يريد أخرى، ولا أحسب النسوة اللواتي ألتقيهن على أسرّة الفنادق والمواخير خيانات من أيّ نوع؛ فالرجل الذي تناولهنَّ في وجبة سريعة ونكّل بأجسادهن يحمل اسمًا مختلفًا وهوية لا علاقة لها بي، متشظّيًا متناثرًا، حيث لا رابط بيني وبين

هؤلاء الرجال الذين أحمل هوياتهم المختلفة بين العواصم بعيدًا عن رجاء الفاتنة.

***

امرأة كاملة، غيَّرت حياتي كأني لم أكن يومًا نزيل الخيمة. يتملَّق لي رجال الأعمال الذين يفرحون بهداياي من صحون السيراميك الأبيض الموشح بضربات حليبية كأنها عَرَق في بياض الصحن، مربوطة بورق السوليفان الذهبي والنحاسي اللون، والشرائط الملوّنة والأزهار القماشيّة المنشّاة، صحون معبأة بحبات الشوكولاتة المحشوة بندقًا ولوزًا. يقرأ المُنعَّمون الذين تصل إليهم الهدايا كلمات مجاملة رقيقة في بطاقة صغيرة تُركت على طرف الصحن بأناقة لا تسيء إلى رقيّ الهدية ولا تُعبِّر عن فجاجة. مجاملة ممهورة بتوقيعي بخط نحيل: «أوس»، مدموغة بشعار شركتي: «اللّذة مهمتنا»، ورسم لنقطة من السائل الكريم تسقط كحبة لؤلؤ في فضاء من ذهب. يردُّون هداياي بأغلى منها، ويقفون إلى جواري بعرفان في الاحتفالات والعشاءات الفاخرة شاكرين لَحَسات المادة الحلوة التي دوَّخَتهم. أتحرَّك بين الموائد كأنّي أمُنُّ على ضيوفي، أوزّع ابتساماتي وأهزّ رأسي للمديح والنفاق، أوزع أقداح النبيذ، وأقدح ولاعتي الذهبية لإشعال فوهات السيجار الغليظ الذي يرضعه علية القوم بتلذُّذٍ بين شفاههم الغليظة التي لا يعلوها شارب؛ هي علامة الثراء والانتماء

إلى طبقة بلاتينية، هؤلاء يضعون أكفَّهم بتبسط على كتفيّ قائلين بلهجة جادّة شديدة الحماسة:

«لـمَ لا تعمل بالسياسة؟ اسم عائلتك يفتح لك الأبواب. وضعك المادي، محبة الناس لك..».

بالطبع لا يقولون كل شيء ولكني أقرؤه بين حروفهم: أنت غامض داكن، أملس حلو على مرارة كما الحبات اللذيذة التي تهدينا إياها، تذوب في القلب كما يذوب الكاكاو في القشدة، هيا إلى السياسة اللعينة التي تليق بك وتليق بها. بإمكانك أن تصير رقمًا فخمًا صعبًا، تمتلك المقومات، ستكون سياسيًّا عظيمًا يُحدِث فرقًا وخدشًا عميقًا في وجه الحياة.

أوشك على تصديقهم، حتى إن ثعلبًا تركيًّا من زبائني التقاني في أنقرة تحت اسم مُزيَّف، نظر مليًّا بعد أن تجرع نصف زجاجة برفقة الرجل الماشي، وقال بحكمة عالية:

«أنا لا أعرف من أين أنت، عربي في تقديري، هذا لا يهم، ولكن إذا لم تكن تلعب على مسرح السياسة في بلدك فافعل، حرفتك تحتاج إلى تأمين، حماية، ساتر واقٍ كذلك الذي يبنونه في الحروب ليصد القذائف. خلف السياسة يمكنك إخفاء آثامك أو اكتساب المزايا، أنت وسيم كنجم سينمائي، لا تتردد».

لم أجبه، وابتسمت كعادتي ابتسامة غامضة متفاديًا نقاشًا لا طائل من ورائه.

أنا بارعٌ في إذابة شخصي مثل كومة ملح لا تترك أثرًا.

أما زوجتي فهي مثل نجم باهر، لا يمكنني إغفال جمالها والانتباه إلى أن الآخرين يقعون مثلي أسرى سحرها، الأنذال الذين لم يلتفتوا لوجودها قبل أن أكتشفها وأعيد تشكيلها، لم يعودوا يكتفون بتعليق نظرات الإعجاب بوجهها الصبوح، ولا يتورعون عن تسليط أعينهم الفاحشة إلى جسدها المثالي. يُظهرون بهجتهم لمرآها علانية، وتبدو في وجناتهم مسرّة وهم يتابعون فتنتها الراقية ورقتها، دون أن يترك كل هذا الجمال الباذخ غيرة أو حسدًا في نفوسهم، حتى النساء من البشر، يرافقنها مستمتعات بوداعتها وخفَّةِ ظلِّها وأُنسها وكرم روحها، كأنها ملاك، وأنا أشكُّ بأن الملائكة يصيرون بشرًا لأتزوج واحدة منهم. يُشعرني كمالها بالحنق، أبحث عن علّة تمكنني من غفران اكتمالها، مثل خدش على جلدها الناعم، أو نقرة في وجنتيها، أو قذى في رمشها عندما تصحو في الصيف الساخن، بثرة تتقيح، تعرق بشري يخترق سحابة العطر التي ترافقها كيفما تحركت، كبوة، تقصير ما، جنحة في الليل البهيم، ريح نتنة وقرقعة ضراط مضحكة تخرج منها ككل البشر. أُفتّش مفزوعًا ولا أجد ما ينغّص كل هذا البهاء، كأنها غير حقيقية. لم تعد تشبه تلك البسيطة بالثوب الأخضر، تحوّلت إلى ساحرة مخيفة، ليست بشرًا من لحم ودم. أصحو في عتمة الليل، وعلى انعكاس شاحب لضوء شحيح يتسلّل من باب موارب أو نافذة منزاحة أُحدِّق في وجهها الغافي بسلام وعلى الشفتين

طيف ابتسامة، وشعرها مُبعثَر حول رأسها في فتنة مبهرة. تداهمني فكرة أنها مخلوق فضائي أو ساحرة شريرة مقنَّعة بالجمال والكمال، وإلّا كيف تحظى بكل هذا الوميض الذي يكشف عتمة روحي؟

كيف لها أن تكون على هذا الكمال القميء كأنّ العالم لا يتصدَّع حولها. في بعض الليالي، يقع خللٌ بين الحلم والحقيقة، أكفُّ عن التحديق بوجهها المنير بحثًا عن عيوب، وأغفو.. أشعر فجأة كما لو أنها مستيقظة، تتنفَّس ببطء خشية إيقاظي، تُحدّق بي تاركة ضوءًا خفيفًا يتسلَّل من إضاءة الشارع عبر النافذة فيمسح وجهي. هل تبحث بدورها عن خفايا روحي؟ عن عيوب خلقتي؟ يرجف قلبي حين يتوتَّر تنفُّسها فيتسارع كما لو أنها خائفة، وأواصل تظاهري بالنَّوم أو أني نائم فعلًا، أشعر بوجهها يقترب متمهلًا متوجّسًا، ثم أسمع خشخشة فتحتَي أنفها تتفحص رائحتي مثل جرو فضولي، وأشعر بها تنتفض ووجهها يبتعد سريعًا، وجسدُها ينقلب إلى الطرف البعيد من سرير الزوجية. ماذا اكتشفَتْ زوجتي المصون؟ عمَّ كانت تبحث أساسًا؟ لا يمكنني حقًّا أن أجيب عن هذا السؤال المر؛ ذلك أن الصباح يطلع على وجهها رائقًا محايدًا عاطلًا من التعبير، ترفع فنجان القهوة عن الصينية الفضية وتقدِّمه بلباقة لي، ويبدو كل شيء على ما يرام، لا أعرف ما إذا كانت ممثلة بارعة، أم أنها مجرد امرأة تصاب بالذعر ثم تنسى؟ ماذا يحدث في تلك الليالي الغامضة، لم أسألها، ولم تسألني، فقط، أتذكّر برودها في أيام الخطبة وضحكاتها

المتقنة في لقاء الأصدقاء، ونشاطها المحموم وهي تهيئ البيت وتفرشه بغالي الرياش، وأبتلع ذكرياتي وصمتي معًا، وتمضي الحياة كما هي .

تغيظني حين تمرُّ فوق رخام الصالة والشرفة المطلَّة على الحديقة، تمشي كما تهم عصفورة بالطيران، مهيبة كإلهة إغريقية، تسير متأنّية غافلة عن ملايين ماتوا حرقًا وجوعًا، ومدن تدمرت، وأخرى صريعة تفرفر كالذبيحة بين مخالب صفقة القرن. ليس الأمر أنني أهتم بمن ماتوا حرقًا وجوعًا، ولا بالمدن المتهاوية والأفكار المهزومة، لكنَّ آثار تلك المصائب تركت في روحي ندوبًا لا يراها سواي، وحُفَرًا عميقة تكفي لتتسرب منها مياه المحيطات، بينما بقيتُ جافًّا مثل حطبة تتأهّب للنار! لماذا تبدو هي تمثالًا مرمريًّا كامل الأوصاف؟ لا بد أنّها مجرّد تمثال، فالتماثيل لا أرواح لها، هو نقصٌ مبين، ضربة تقصم كمالها وتريح قلبي، ناقصة مثلي! ثم فجأة أفيق من وهمي العابر أو حلمي الثقيل متنبهًا، ليست تمثالًا، بل امرأة، بشرية، امرأة كاملة، وتزعق روحي: بئس الكمال، أكرهه، أكرهه.

كلما مر الزمان ثقيلًا مخادعًا ضاربًا خنجره في وجهي تاركًا ندوبه وتجاعيده في جلدي ومساحة من الصلع في رأسي، كبر دليلي على لا أدميتها، فهي لم تكبر، لم تتجعد ولا تغضَّنَت أطرافها، ولا وهن عظمها، ولا خَفَتَ بهاؤها. رغم عشر سنوات من الزواج، فإنها مثل بنات الحكايات اللاتي لا يشخن رغم عجلة الزمن الهادرة فوق أجسادهن،

كبنات الأحلام اللاتي لا يُبدْلن صباهن وألقهن، بل لعلَّها تحتاج إلى دلائل دامغة على أنها حقيقية.

المفتونون بكرمها وجودها وهداياها وولائمها الحافلة بما لذّ وطاب، ينسون أنها تمنح من جيبي، تجود من نقودي الخاصة التي جنيتُها بالصفقات المشبوهة. مع ذلك لا أعترض، أُفسِّر الأمر على أنه تطهير لخطاياي، مسحٌ للغبار عن صورتي. تجميلٌ لصفرة وجهي. قد أنقم عندما تبلغني أخبار الاتهامات وسفالات النميمة السوداء التي تطالني من الحاقدين والحاسدين، لماذا لم تقم زوجتي الفاتنة بواجبها كما يجب؟ قد يكون عليها تكثيف جهودها بعيادة المرضى والظهور في دور العزاء وصالات الأعراس، قد يتوجب أن تجزل في هداياها للنساء الثرثارات.

لا أعرف كيف تمكَّنت الشابة الجميلة ابنة المحامي الذي لم يُقم الحفلات والولائم في بيته البسيط من الانخراط في دورها الاجتماعي الجديد؛ زوجة المليونير صاحبة أبهج الاستقبالات والحفلات. الأغرب؛ كيف تمكنت أنا ابن صبّاب القهوة الذي ثقبَ مقدمةَ حذائه القديم لكثرة ما ركل من الأتربة والحصى في الدروب الوعرة، كيف اجتزتُ الهوة المخيفة لأصير رجلًا يرتدي بدلة «مسيمو دوتي» وحذاء «بالي»، ويتسلّى بسيجار كوبي يُلعِّبه بين شفتيه؟

هل أحببتُها؟ هل أحببتُ امرأة أساسًا؟ هذه فكرة معقّدة لا أرغب في أن أعلق بشباكها، فلست قادرًا على منح قلبي لامرأة أو بيت أو شجرة، لا

أنتمي لعائلة أو وطن، لذلك يبدو السؤال افتراضًا مقلقًا. الحب! لن أعترف لها أو لنفسي بأنني أجهل حقًّا كيف يكون هذا الشعور المائع الذي يدمّر الروح.

على مائدة العشاء الحافلة باللحوم الحمراء والبيضاء، المزيّنة بألوان الفاكهة التي لا تعرف المواسم، ووسط صخب الشراب والضَّحك والتندُّر والكلام الجادّ والهزلي، يتبادل ضيوفي الآراء كصبية يقتتلون في حاكورة بيوتهم. يتناقلون أخبار السرقات والاختلاسات الكبيرة والصغيرة في منظومة الفساد، كأنهم بريئون منها، يهمسون بنميمة محببة وحكايات لذيذة حول العلاقات المشبوهة بين النساء والرجال في زوايا المجتمع المخملي، يسبّون الحكومات والدول العظمى وتلك المُهانة الصغيرة التي لا تقوى على إنقاذ نفسها من مخالب النظام العالمي، كما يسبّون الشعوب التي لا تعرف صالحها ولا تحرص على جوعها وفقرها مفرطة بأمنها. يتحدَّثون عن لعبة الأمم، يجرّون أمريكا وروسيا، تركيا وايران، آبار نفط الخليج، ومجاعات السودان، الثوّار والخونة والأحرار وحزب الله والطوائف والدواعش والماركسيين الجدد، الموالين والمعارضين، الملوك والرؤساء المقيمين والمخلوعين، يقطّعونهم بأناقة كما تُقطِّع سكاكينهم لحم الستيك قليل النضج. ويبدو كما لو أن العالم حلبة سهلة القياد، لا تكلف ضيوفي عناء رفع مؤخراتهم عن المقاعد الوثيرة. يتحوّلون جميعًا إلى مفكّرين ومنظّرين ومحلّلين، يختلفون، ويتّفقون،

ويبرعون في مضغ اللحوم بين أضراسهم المُعتنى بصحتها وبياضها، المدعَّمة بالبورسلان والجسور والأسنان المزروعة. لم يعد هناك لونان لا ثالث لهما: أبيض وأسود، لقد امتزجت الظلال القاتمة بالضوء، وانهمر المزيج في مجتمع تخبّط كما لو أنه رجل بدين يغوص في سبخة طينية نتنة بحذائه وكامل ثيابه. وكنت أُحبُّ منظر رامي، شقيق رجاء الذي كبر وتوصّل إلى قناعة بأنه يعرف كل الأسرار ويملك مفاتيح الحلول، وأنه الأذكى والأجمل. كان يتحلّى ببعض جمال خارجي كأخته، يشبه أباه؛ مراوغًا أبله، جئت به ليدير الموارد البشرية في مصنعي، على الرغم من كثرة أخطائه، وجلافته في التعامل مع العاملين، إذ يستمد من صمتي وموافقتي قوة يتحرك خلالها. أحتاج إلى صلفه وقسوته لضبط أمور العمل، وأستمتع بمراقبته يحاجج ضيوفي مسفِّهًا آراءهم، يعفيني بمهاتراته الساذجة من الدخول معهم في مهاترات الحوار. تعجبني وقاحته واندفاعه الأحمق، لكني أراقبه بحذر مستتر، يمكنني بخبطة صغيرة أن أطيح به لينكمش مجددًا ويرجع ذلك الجرو الصغير الذي يراقب أكتاف العاريات ويلتهم طعامه ذاهلًا.

للحق أقول إن تلك الولائم المذهلة تساعدني في تتبع أخبار العالم ومعرفة التفاصيل الصغيرة المهمّشة التي تدلّني كيف أوجّه جهودي. لكنَّ عبء الحياة على هذا النحو الظاهر والخفي لم ينبهنا معًا، أنا ورجاء، إلى التغيير الذي طرأ على جسدينا. تطال الأحداث العالم وتجعلني يقظًا

مترقّبًا، تُغيّر وجه الكون، وأنا بصورة خفيّة عرّاب التغيير، الشيطان الصغير الكامن في الزوايا الخفيّة المغطّاة بالشوكولاتة كقالب كيك حلو في الظاهر عفن في أعماقه.

اجتاحت حركات الاحتجاج العواصم العربية الساكنة زمنًا لا يُستهان به، لتتسنّى لي فرصة ذهبية في تحريك تجارتي وصفقاتي السرّية. كنتُ مضطرًّا لحماية نفسي من مافيات تجارة السلاح الذين يجتاحون المنطقة، والقراصنة الذين يبيعون أسلحة غير صالحة عبر الإنترنت؛ تمامًا كتجّار الأغذية الفاسدة التي انتهى عمرها الافتراضي. كذلك من الدول التي لم ترِوِ جوعها وعطشها ببيع الصواريخ والدبابات والطائرات والغواصات، ولاحقت رجلًا مثلي تشاركه في رزقه من تجارة الأسلحة الخفيفة. أتسابق بجهودي الفردية مع دول متوحشة، أيّنا سيحظى بصفقات آمنة؟ مرقت من ثقوب الشبكة العالمية كجرذ ذكي، راوغت أمريكا وروسيا وتركيا وإيران وإسرائيل، ألستُ كبيرًا؟ ألست عظيمًا؟

لم يكن العثور على زبائن عسيرًا؛ فالطرق الصحراوية المتشعبة الواصلة إلى العواصم كما إلى الزوايا المهمّشة البعيدة كلها تتلقف بضائعي. تتناحر الشُّعوب والدول وتتناطح كما التيوس البرّية، ولدى كل منهم ما يذكي نار غضبه ورغبته الدموية في الانتقام، أو تحصيل فريسة بينما الغاب يشتعل.

جُنّ الربيع العربي وأطاح بالحكومات واحدة تلو أختها، ورقصت الشعوب في الميادين والساحات ودُبّجت القصائد، وأنا أنتظر فرصتي لأمرق بين أفراحهم. مخدراتي تفيد في حال الفرح، وأسلحتي تفيد إذا ما انقشع الغمام، وتكالب الطامعون على ما تبقى من جثامين الدول المتعبة المستنزفة. تتجدد الصدمات تحت مسمّيات جديدة ويتغيَّر لون مرحلة الصراع.

تشظّى حمدان الإماراتي إلى رستم الإيراني وطوني اللبناني وحيدر السوري وجهاد الفلسطيني. لم أصطحب معي إلى عمّان ما يدل على هؤلاء الكثرة الذين ألعب أدوارهم ببراعة، لا أوسّخ بيتي بكل الأوباش الذين أكونهم. ولا أورّط دائرتي الصغيرة القريبة بعملياتي المشوَّهة المشبوهة، باستثناء المساحة الضيقة التي أتحتها لكايد ليشاركني أرباحي استعدادًا ليحمل وزر أفعالي إذا لزم الأمر. تُعجبني نزاهتي وحمايتي لعائلتي، إنها دليل على خلقي وإنسانيتي، فأنا رجل حلو تمامًا مثل حبات الشوكولاتة. لعل العاملين في مجال بيع الأسلحة والمتاجرين بالمخدرات يُخفون خلف مهامّهم المنبوذة تلك وجوهًا ناعمة بشوشة، محبّين رغم كراهيتهم لكثيرين حولهم، مهذَّبين رغم قسوة الإجراءات التي يذهبون إليها في إنفاذ أعمالهم، إنهم بشر على كل حال، يحملون خيرهم وشرهم وفق ما تتطلبه الحالة. ولا بد أن السينما الأمريكية شوّهت رجال المافيا والمهربين الروس والأمريكان والكولومبيين

والإيطاليين، وقدمت نمطًا غير واقعي، إذ صوّرتهم وهم يحيطون أنفسهم بالحرس والمجرمين، تصرُّفاتهم دنيئة مفضوحة ومعروفة عند دوائر الأمن ووحدات مكافحة تجار المخدرات، يدمنون القتل والنساء. بالمقابل قلّدت السينما العربية هذا النموذج بصورة كاريكاتورية ساذجة، يبدو أن هناك غباء عالميًّا في فهم الرجال أمثالي.

حافظت على وسطي نظيفًا لا يرقى إليه الشك. حتى شبكة تزوير جوازات السفر لا يمكنها العثور عليّ بعد إمدادي بوثائقي الجديدة. وكأن أوس الأردني غير مرئي بتاتًا بين هؤلاء، لا يعرف عملائي مع أي اسم يتعاملون، ولكن القنابل العنقودية تصل إلى بيروت، والكلاشينكوف الأخمص المشطوف يطير إلى ليبيا، وبندقية أم 16 تتجوَّل في سورية، ومسدس غلوك ينام في مخادع الساسة في الجزيرة العربية ويتبختر في أحزمة صعاليك الثورات، كذلك القنابل العنقودية التي تبتاعها الدول وجماعات الثوار لتربض في باطن الأرض زمنًا قبل الانفجار الذي يحصد أرواحًا كثيرة. وتكبر طموحاتي، ومثلما فعلت دول عظمى حين شاركتني أرباح القنابل اليدوية صار بإمكاني منافستها وعقد صفقة جريئة لبيع صاروخ تاو مثلًا لأشارك الكبار لعبتهم وأكبر. أنا من صنعَ تلك الشبكة المذهلة من الموت الرخيص. وحتى لا يأخذني الزهو بعيدًا فأنا لم أكن وحدي الصائل الجائل في الساحة، فالمنافسون كثر، بعضهم يمتلك وضعًا قانونيًّا وشرعية تمكّنه من عرض بضاعته في المعارض الضخمة التي تسرّ

البال أمام كاميرات وسائل الإعلام. وآخرون يعملون في الخفاء لا يُعَدّون ولا يُحصَوْن، ولكنهم في الغالب الأعمّ مكشوفون لأجهزة الاستخبارات الدولية والمحلية حتى في أصغر الدول وأقلّها نشاطًا أمنيًّا، ومسكوت عنهم لغايات أكبر، أما أنا فمجهول محيّر غامض، أتحرك بذكاء فلا تطالني وسائل الإعلام ولا يكشفني رصد، لم أسلّم مفاتيحي لعصابة أو مساعدين كما لو أني شبحُ الشيطان بعينه، ولكن اللعب مع الدول بات متعبًا.

هل كنتُ أطمح أن أزداد ثراءً أو نفوذًا؟ لا. ماذا يعني ثراء لا أريد له أن يكون في العلن كله؟ ولست بطامع في تجاوز صورتي المتعارف عليها بوصفي رجل أعمال ناجحًا نزيهًا في عمّان. ما الذي إذن يجعلني أدخل مثل هذه المغامرة؟ هو ذلك الهرمون اللّعين الذي ينفث في أوردتي لذّة لم أخبرها بكل أنواع اللّذات على الأرض؟ أكاد ألمس تلذّذ إبليس وهو يطيح بالبشرية إلى أرض العذاب.

وهل تستحق البشرية إلا أن نسخر منها على هذا النحو؟

هل يعقل أن ما اقترفته يداي في الخارج رُدّ لي ليعبث بما ظننتُهُ بهيًّا في حياتي؟ لا أؤمن بجزاءٍ يتربّص بي، تلك تبريرات الجبناء، لكن جسدي تلقى أول طعنات الحياة؛ لم يضربني مرض السرطان ولا وقعت أسير الإيدز أو أمراض القلب والسكر والضغط والكوليسترول، هذه أمراض المواطنين العاديين، ولم أكن عاديًّا. لكني أعرف أن خطبًا أصابني،

تدحرجت الحرارة في علاقتي الجسدية مع زوجتي من جذوة مشتعلة إلى نِسَبٍ معقولة من العادي والبارد. ولم تدق أجراس إنذار مبكرة لدينا، استسلمنا للتغييرات دون اهتمام، فقد انغمسنا في الحياة عقدًا من الزمن كلٌّ منّا يشحذ أظافره وأنيابه في ما يظنُّ أنَّه الأجدى. فقد لحمها الدفء، لم يبرد لكنه صار فاترًا، محايدًا، حتى لا أحسَّه، باتت علاقتنا في السرير هادئة تنتهي إلى نشوتها خالية من الضحك والبهجة والعنف، العض والسباب والكلمات النابية أو حتى عبارات الوجد والغزل، صرنا نلتقي في أداء مدروس، كلٌّ منا يقوم بدوره النمطي، القبلات والعناق ثم ننتهي في وقت محدد لا هو بمستعجل ولا بطيء، في هذا الوقت المنطقي لا نلتهب ولا ننطفئ، ولا يضربنا بركان ولا صقيع، تبدو الأمور بالنسبة لها مرضية. أما أنا، من جرَّبَ جنون الجنس وانزياحاته الملتهبة، الضحك والبهجة وانتقام الجسد من الجسد مع نساء عابرات، فإنني أعرف أن ما أمارسه مع زوجتي رصين حتى الضجر. ألا يحدث هذا لكل المتزوجين؟

نسترخي بعد الممارسة ووجهانا إلى فضاء الحجرة، ننظر إلى الثريا في الأعلى وهي تتدلّى مثل مشنقة فاخرة لا يحركها هواء. تهدأ أنفاسنا تدريجيًّا ثم ننهض ويتجه كل منا إلى حمامٍ ليغتسل، يُسمَع خرير الماء يتدفَّق في مكانَين متباعدَين.

يموج بيننا صمت لئيم، تخافني وقد انقطع الحديث، لعلها تتوجس مما يطرأ في بالي بعد سنوات عشر من زواج رتيب انشغلتُ خلاله

بأعمالي أكثر مما انشغلت بها، ولم تسألني أو تحاججني مرة، حتى حين عزلت والدها عن منصبه في المصنع، كانت ممتنة لوالدها انسحابه بهدوء مثل جرو ركله صاحبه. دسّ ذيله بين قدميه ومضى، لم يعاتب ولا جرَّبَ تأنيبها أو استعطافها لتلعب دورًا في إنقاذ عمله مع زوجها. قدَّرْتُ أنه أبٌ عظيمٌ حقًّا، لا يُثقل عليها بمهام تبدو مهينة أو صعبة مع رجل وعر، وقدَّرْتُ أنها ابنة خسيسة تكتفي بالفرجة والسكوت على ذلة والدها، تخاف إن سألت أن يكشف لها زوجها وجهًا قبيحًا للأب الذي تحب، كأن يكون مختلسًا أو مرتشيًا أو فاشلًا. لهذا آثرت الخسَّة المسكوت عنها، تعلمَت أن تصمت وتحني رأسها قليلًا ريثما تمرُّ رياح الشر.

تحفر الاختلافات خندقًا بيننا، لا نتشابه إلا في فقدان الأمهات، وليس لهذا اليتم الضئيل أثر في نفسي، كأني لم ارتبط يومًا بأمي عبر حبلها السرّي ولا أطعمتني ولا غنّت لي موالًا قبل النوم. كذلك تحتلُّ أمها مساحة ضيقة في ذاكرتها، يُتمُنا خالٍ من الحزن، والهوة بيننا تتّسع حتى لا يمكن التقليل منها بخطوات في هذا الاتجاه أو ذاك. هي تفضِّل الأشكال الهلالية أو الدوائر، أو الخط الذي ينحني في إهليج بيضاوي كأن آخره يعانق بداياته. ترى في تتبُّعه دروبًا مزهرة للقلب، تراه كما الكون يصير ريشة فنان تتراقص برشاقة راقصة باليه في لوحة البياض فتتلوّن، يخيفها الصمت في ردهات البيت الواسع الوثير، تسمع للصمت طنينًا منتظمًا مزعجًا، تحبُّ

أن يخدش الهدوء المريب صفير الريح، أو زقزقة عصفور، أو تنهيدة عاشق، أو بكاء طفل.

أُفضِّل الخطوط الحادة، الصريحة أو الملتوية، المهم أن تكون ممتدّة مثل الرماح، أو متحركة في انكسارات حادّة لتصير مربعات ومثلثات برؤوس إبرية مدببة، كأنها تمثيل صريح للعقل الذي يعقل، ويتوقف حاسمًا أمره وأمر سواه، مثل ضربة سكين قاطعة أو حدِّ سيفٍ بتّار، يحتك بالعالم ولا يُحدث اهتزازت فيه، يستمتع بصمت عميق يدخل عبره إلى كهفٍ روحيٍّ حيث العتمة والفراغ المخيف.

يقضم القلق روحي بانتظام، لست بغافل عن حزن امرأتي وقد كان عليها أن تفرح بمنجزاتي العظام، لكنها لا تفعل. وللينٍ في طباعها تعتدل سريعًا، تصيبها بهجة مصطنعة إذا فاجأتُها بسفر سريع أو منحتها هدية لطيفة أو أجزلت في النقود التي أتركها لها على طاولة حجرة النوم. تُقدِّر أن هذه طريقتي للاعتذار عن البرود والصمت، عن تقلباتي الغريبة التي لا أبررها ولا أشرحها. لا تستطيع تفسير شعورها السلبي بأن وراء صمتي لؤمًا من نوع خفي، وحين لا تجد أدلة وشواهد على مشاعرها الناقمة تلوم نفسها وتحزن. مثل قط وفأر نتقدَّم ونتراجع ونتلاحق، أغرَقَنا تكرار الحالة في الصمت والتَّرقب الحذر؛ كأنّ كل واحد منّا في جزيرة معزولة حيث لا أمل في اللقاء. نتشارك الاحتفالات في مناسبات تخترعها

وتفرضها، نتناول الطعام في أرقى الصالات صامتين أنيقين كتمثالَين حجريَين، وتصبح الحياة باردة حدَّ الصقيع.

في تلك المرحلة الفاقدة للّون بدأت تتحدَّث عن حبها للأطفال، كأنها لم تكتشف ذلك لسنوات عشر خلت. وبدأت أتذكَّر كم مرة شاهدتُ زوجة كايد ببطن منتفخ. توقَّفَت رجاء عن تناول حبوب منع الحمل بموافقتي وصارت تحسب الأيام الأنسب للمضاجعة التي ستفضي إلى إنجاب طفل يشاركنا الملل. تتريَّث في السرير بعدي، تسند ظهرها إلى وسادة، وترفع جذعها الأسفل قليلًا في محاولة للإمساك بمائي أطول فترة ممكنة.

اغتال الضجر والترقب بهجة روحها وأدائها، لاح في الوجنتين، أول ما رصدتُهُ عالقًا في وجنتيها لا في العينين كما يدعون، العيون تكذب وتزوِّر، أما الوجنات فترتخي وتبهت، تمنع الشفتين من الانشداد إلى الأعلى في ابتسامة، ترتعش رعشات خفية لا يمكن التحقق منها. انتبهتُ عند أول إشارات من وجنتيها، لا حساسية مني، لكن أنانية وخوفًا من أن تجتاح تلك الحالة المريرة إيقاع حياتي الثابت. أغدقت عليها اختراعاتي المسليات: حفلات، سفر وسياحة، عروض مسرحية راقصة في قلب باريس، زيارة إلى متحف الأرميتاج في سانت بطرسبرغ، حناطير جزيرة الأميرات التركية، جولة في البندقية راكبين الجندول، وأكثر. في كل الجولات تركتُ لها فسحةً من الوقت ونقدًا وفيرًا لتغرَقَ في حُمّى الشِّراء.

تتجوَّل في المحال التجارية المرموقة لتتسوق أحدث ماركات الأحذية والثياب التي صمَّمَها مشاهير ولبستها مشهورات، وعطورًا عريقة وأخرى مستحدثة. تتوقف الوجنات عن الانحناء لحين، ثم يعاودها الارتخاء، حتى نضبت حلولي.

صارت تحلم بطفل يبعث في حياتنا حراكًا ما، يرث نهر النقود التي تتفنن في تبديدها. فتحَتْ ملفات عديدة في عيادات الأطباء الأكثر شهرة وقدرة على تحقيق أحلام النساء، وأجرت كل الفحوصات اللازمة، وراحت ترقبني بنظرات اتهام متواصلة كوني لم أعرض دمي ولا لحمي لفحص مخبري. ولأنها تدربت في نشأتها كامرأة محترمة على الصبر واختيار الكلمات بعناية والحفاظ على البيت قائمًا لا يميد، فقد أطالت صبرها واحتمالها ضجرها، قررت الاستعانة بالطبيعة تهدئ قلق روحها، تحمّست مثل طفلة لفكرة اقتناء أرض تزرعها بأشجار التفاح والخوخ ودوالي العنب، تحيطها بالورد من كل لون. لم أحرمها من لهفتها المفاجئة وتركتها تتجوّل بحثًا عن جنتها الخاصة حول عمّان الحجرية، وابتسمت موافقًا وهي تصحبني إلى مزرعة مكتملة يعرضها صاحبها للبيع بسبب السفر إلى الخارج.

نُسّقت الأرض بعناية، وتوزّعت الأشجار المثمرة في أعلى تل الرمان محيطة ببيت حجري صغير أنيق. أزعجني أن علينا المرور في طريقنا ببيوت طينية لفلاحين يمتلكون سفح التلة. لا يبدو على رجاء أنها ترى

تلك البيوتات أو أنها تسبِّب لها حرجًا؛ ففرحتها بالمزرعة الكاشفة تسدُّ الأفق تمامًا أمام المنغّصات التي أراها بوضوح. فُقَرَاء متعنتون لا يدركون فنون العيش راضين بمظهرهم المزري وبيوتهم العاطلة من الجمال، يعيشون عيشة الكفاف فوق أرض خلّابة يمكنها أن تجلِّلهم بالذهب لو باعوها، فقد قفزت أسعارها إلى أرقام خيالية بعد أن ابتاع الأثرياء قمّة التل وحولوه إلى منتجع فخم. اجتمع العالَمان المتناقضان منتشرَين في سفح التلة وأعلاها، بينما يمر الطريق الدولي في الأسفل مخترقًا الجبال ماضيًا كأنّ هؤلاء جميعًا لا يعنونه.

هيأت زوجتي كل الاحتياجات للمزرعة لتناسب أهدافها في الاستجمام والعزلة. تذهب إليها كي تريح أعصابها وتستمتع بحفيف أوراق الشجر إذا حرَّكتها الريح، مانحة ناظريها مشهدًا فاتنًا أسفل الوادي لبحيرة سد الملك طلال، حيث الزرقة الداكنة تلتمع كصفحة مرآة. كل شيء ثابت هادئ غامض، صورة فوتوغرافية كبيرة ملقاة في قعر الوادي.

استنشقت رجاء كمًّا وافرًا من الهواء حفّزت به رئتيها، دلَّلت جسدها بفيض الأوكسجين والشمس، تأمَّلَت القمر في ليال كثيرة، لكنها وبسرعة ضاقت بالهدوء والوحدة، إذ لم أكن موجودًا لمرافقتها في تأمّلاتها. اغتنمَتْ وجودي مرة أو مرتين لإقامة حفلة شواء دعت إليها رجال الأعمال الذين أحبّهم، أو أكرههم، سيان. تتلألأ أضواء المزرعة الكهربائية والأخرى في البيت الريفي، وتذوب الشمعات التي رشقَتْها

على امتداد الطريق بين البوابة الرئيسية وباب المنزل. يتراقص لهبها مشكّلًا خيالات ضبابيّة فوق أجساد الزوار وجذوع الشجر، في حين يتقافز المغنّون المخانيث الذين جَلَبتْهم لإحياء الليلة كقرود، ويتمايلون كالبنات الصغيرات الفاتنات. أرفعُ كأسي متأنّيًا وابن الشيخ ينحني في تبجيل ليقبّل كفّ رجاء الممدودة نحوه على نحو رخو. أرتشف نبيذي بهدوء، ليس سيئًا أن تتمّ دعوة ابن الشيخ بين حفلة وأخرى، نتبادل الأدوار بصمت مرعب، نتحاشى تلاقي النظرات، أطرد مشاهد عتيقة تحاول الحضور بقوة، لا أكاد أسمع ما يقوله ابن الشيخ وسط الحشد المنصرف كل واحد فيه إلى عالمه الجوّاني، أرصد العالم بقلب بارد.

أُعلِّق في زاوية فمي سيجارًا كوبيًّا يعبق برائحة خليط من التبن والنعنع، محافظًا على ابتسامة لا يمكن تفسيرها، أجامل بها ضيوفي من علٍ. لا أترك كأسي من يدي رغم أن الكأس تظلّ ممتلئة حتى نصفها طوال الحفل، تجول بين أناقة ثيابهم وبريق مجوهرات زوجاتهم وعشيقاتهم، وضحكات التملّق والنفاق وشذى العطور التي استعارت روح الزهر في تقليد منتقص. ورغم أن فضاء المزرعة مفتوح على السماء فإن اختناقًا خفيًّا يصيبني، كأنّ إصراري على التأقلم مع الحفل البهيج يقبض أوتار عنقي ويشد.

في الفترات التي تطول ولا يمكنها إقامة حفلات رسمية كتلك في مزرعتها، فإنَّها تسمح للصَّديقات والأقارب من الفتيان المراهقين بإقامة

حفلاتهم الخاصة، كما تصطحب معها عَددًا من النسوة اللواتي يمدحن الطبيعة ويُجدن الشواء وفرم التبولة وإعداد الحلويات. يتجمعن ضاحكات فرحات، يتراكضن تحت الأشجار، معجبات بانفتاح الأفق وجمال المشهد في الأعماق البعيدة، وطزاجة الفاكهة المقطوفة من أشجارها، يتحاسدن، ويتهامسن بلطائف من النميمة والأخبار السرّية جدًّا.

رغم صخب الحياة في المزرعة الفاتنة فإنَّ سدَّ الملك طلال يلوح أحيانًا كأنه اتِّساخ طفيف في جسد الطبيعة، وسط البيئة الجافة العطشى يشوب ازرقاقَ مائه اصفرارٌ خفيف. يفقد فتنته فتتسلَّل كآبة صفراء إلى روح زوجتي مجدَّدًا كأن المزرعة لم تكن حلًّا، وهي ليست حلًّا في كل الأحوال، لا بد من طفل. المسألة التي أتفادى الحديث فيها، مضيِّعًا من شبابها ما باتت تراه خسارة، دقّ ناقوس الخطر في قلبها كلما أطفأت شمعة عيد ميلادها. بلغت الآن الثالثة والثلاثين.. ماذا بعد؟

باتت الكلمات والتلميحات العابرة جارحة، أسأل نفسي ماذا يعجبها في فكرة وجود طفل بيننا؟ لماذا تريد شيئًا جميلًا عدا الأشجار والقصر والسيارات الفارهة والمجوهرات البرّاقة والأطعمة المزينة بإضافات لم تعرفها أمّي ولا أمّها؟ لماذا الطفل؟ هل تختبرني لتسجّل عجزي؟ أم تشكّ بي فتبتاع لها سندًا في مستقبلها؟ ثم ماذا سيفعل طفل في هذا الزمان المكتظ بالخوف والكراهية والحروب والمؤامرات والجوع؛ الزمنُ

الماضي إلى حتفه حتى في ثرائي ومائدتي التي تحفل بالطيبات؟ أعرف أن جوعًا يجعر في الكون، لماذا إذن آتي بطفل؟ لا أريده، ولكنّي في كل الأحوال معنيّ بفضول ينهش قلبي، هل أستطيع أن آتي بطفل، أم أني قاحل عاجز؟ مَن منّا العقيم؟ لو ضاجعت مومسًا أو ابنة إبليس، هل سأُنجب طفلًا؟ أم أنّ هذا العجز يتعلّق بها وحدها وهي على هذه الصورة من البراءة المقيتة؟ في لحظات الخلسة الخفية، أتمكن من قضم كمالها بأسناني، أتحدث كأني أشكو أو أوشوش سرًّا في أنّ امرأتي عاقر، بطنها لا يحبل ولا يلد، والمرأة التي لا تلد منقوصة، ولكنّي في هيئة الشهم النبيل صابر وراضٍ، لا أعاتب ولا أعاير، ولا أبحث في أسباب حرماني اللئيم من الخَلَف الصالح، ومن تخليد اسمي البهي.

في تلك المرحلة والعالم يدخل رعبًا جديدًا، خففت الخطو، انصرفت لقلقي المرفوع على قلق زوجتي، راقبتُ حذرًا الجنون يعتري العالم وهو يتناقل سلاحي وسلاح سواي من اللاعبين، فتراجعت خطوات كي لا أرتطم بمفاجأة تقلعني من جذوري. ووقفت متفرّجًا على الهامش وأنا أرقب اتساع سوق المخدرات وزحام المشاركين فيها في حفلاتنا المملّة متظاهرًا بعدم الاهتمام. أسمعهم يتحدثون أن الأردن لم يعد منطقة عبور فحسب، بل هو سوق استهلاكية جيّدة. اكتفيت منه بمراقبة تحركات مبيعات كايد المحدودة مختفيًا كشبح يلمحون ظلّه ولا يرونه، لم أتعاط مع شركاء محليين، حميت قلعتي من الوشاة والمتاعب المحتملة، ولكنَّ

اللاعبين في الساحة تكاثروا وتجاوزوا حذر كايد ومخاوفه. صاروا أكثر جرأة، لم يقتصر الأمر على الهيروين والكوكائين، ولا حتى الجوكر اللعين، اخترقوا الحدود بحبوب الكبتاغون المدمّرة للأعصاب، ومستخلصات الأمفيتامينات. تعرَّفَ الحشّاشون الأبرياء على الكريستال ميث، وبدا كما لو أنّ حربًا وقعت لم يكن تجار المخدرات أبطالها الوحيدين، ولكنّ أنظمةً سياسيةً ودولًا كبيرة وصغيرة، اتخذتها وسيلة آمنة للقتل دون حساب ولشلّ حركةِ من تصنّفهم في عِداد الأعداء. هكذا ستحصد حرب المخدرات أرواح كثيرين وتُضعف اقتصاد دول وتماسك مجتمعات. حرب لا أريد أن أكون طرفًا فيها، ليس بسبب يقظة ضمير خفي ولا لتوبة نصوح حلّت بي، ولكن لأنّ السأم اجتاحني بعنف.

في مواجهة حروبي السِّرّية كلها، مع زوجتي وتجارتي أحتاج إلى استراحة المحارب. للنزال قواعد وأصول، لا يتم جزافًا ولا بعشوائية كما يفعل الأغرار، هناك قوانين تحكم كيفية امتشاق السيف أو تصويب الرمح، وكيفية فتح النيران من فوّهة مسدس أو حلق ماسورة البندقية. وأنا أجيد حربي، وأحدِّد توقيتها، وأتعامل بسرّية تامّة. أطير إلى لندن لإجراء الفحوص اللعينة متفاديًا النميمة العمّانية التي تخرج من عيادات الأطباء، مبتعدًا عن الفضوليين والشامتين ومحبّي الحكايات المثيرة. إنه سرّي الخاص الذي يسوق خطاي كرجل شرقي يبحث عن دلائل رجولته.

(4)

الهواء راكد بين النافذة وبيني، ما يجعل لون الستائر فاقعًا وسط فضاء باهت. نهار ضبابي ملائم للمدينة الرمادية البليدة، رأسي مثقل من الأمس رغم أني لم أحتسِ الكحول ولا ثقَّلت في العشاء. مضطرب المزاج، تفصلني عن موعدي الأهم ساعات قليلة، فيض الذكريات الذي حاصرني منذ لحظة صعودي الطائرة حتى هذه اللحظة الحاسمة يصير مستنقعات عفنةً في الروح. عليّ التخلص من حمولتي الثقيلة تمامًا قبل المضي إلى مهمتي، سأفعل مثل شيخ ينفض الغبار عن عباءته وهو يتحرك، سأُسقط العوالق واضعًا نصب عينيّ زيارتي القادمة فقط.

حجزت سيارة خاصة قبل الموعد، متفاديًا زحام المدينة، وصولًا إلى شارع كنزينغتون حيث العالم يبدو نائيًا وليس من المحتمل اللقاء بمن يعرفني. لن يقع نظري على سائح فضولي أو طلبة عرب يتسكَّعون، فالشارع هادئ بعيد. سأكون في موعدي تمامًا عند عيادة الطبيب، سأتقدم بأبهة كما لو كنت واثقًا، مثل سفين يمخر البحر لينداح الماء إلى الجانبين رغوةً بيضاء. واثق رغم أن الشك يجفف حلقي، ويكاد يرد خطاي، يتصارع يقيني وتوجّسي في كوني عقيمًا، فأنا لم أرغب يومًا أن أصير أبًا، لا أصلح للأبوّة ولا للعواطف المائعة، ولكني بدلًا من حبس هواجسي في فقاعة تحميني من العالم حولي، جئت للطبيب آرثر إيرفينغ الذي يشي

اسمه بأنه إسكوتلندي تمامًا. جئته أبحث عنده عمّا ترتجيه زوجتي. اجتزت الممرضة الصارمة بعد فحص الضغط والحرارة الروتيني وتعبئة النماذج ودخلت إلى الطبيب وأنا أسمع دقات قلبي المرتعش خلف القميص.

بدا إيرفينغ ودودًا مرحًا كما هو جدير بإسكوتلندي، تحدَّث بتبسط ملحوظ متعمد، كأنه يقول كلانا من المستضعفين في الأرض، استعمرتنا بريطانيا العظمى وما زالت تفعل. جلست في كرسيّه الوثير تحت شهاداته الكثيرة المعلقة في إطارات سوداء على الحائط. بدا سعيدًا كوني أتحدث الإنجليزية بطلاقة، أحكي عن رغبتي في معرفة أسباب تأخر الإنجاب، كما لو أني ضفدع أدعو طالبًا لتشريحي على طاولته. تصفح الطبيب تقارير زوجتي التي تثبت براءتها، ولم يرفع عينيه متفاديًا إحراجي تاركًا لي دفة الحديث، مرحه المتكلف وحذره لم يبددا اضطرابي، تسارعَت دقات قلبي وأنشبَتْ الهواجس الغامضة مخالبها في نفسي. تمنيت حينها لو أنّي نطفة في ثلاجة عالم مغامر شرير يجمِّدني حتى أتلاءم مع الزمان، فيطلق سراحي ويعيدني إلى حياتي.

بلايين الاحتمالات تقود عربة البشر كرتل الشياطين، مليارات الخلايا والجينات المجنونة العاقلة السابحة في ملكوت الكون تسكن الجسد والروح، لماذا صرت أنا على وجه التحديد أوس البيرق؟! لماذا لم أكن مغنّيًا مخنَّثًا متواضع الصوت شديد الوسامة؟ لمَ لست عبقريًّا يخترع

طائرة تجعل الطائرات النفاثة في السماء مجرّد ألعاب للصبية والهواة؟ لماذا لم أكن نادلًا في مقهى متواضع أحمل كؤوس الشاي التي لم تُغسَل كما يجب وألقي بها فاترة أمام الزبائن المتذمرين؟ لماذا لست فلاحًا يعزق الأرض وينظّفها من الحصى والأعشاب الضارة ثم يتمدد في ظل شجرة يغفو متشقّق القدمين آمنًا؟ ماذا يفيدني كلّ هذا الـ«لماذا»؟ إني أنا فحسب، ملكٌ بلا تاج على إمبراطورية اقتصادية شاسعة خفية وظاهرة، تمنح الحياة وتسلبها، وفي دهاليز السياسة؛ أنا الثعلب الناجي واللاعب الماهر. جبروتي فوق الجميع، تدرّبت مطوّلًا على كبح لغة جسدي الفاضحة، في ثوانٍ تنبهت إلى جلستي في عيادة الطبيب، ساقاي متباعدتان على نحو فظٍّ يدلُّ مباشرة على الخيمة التي قضيت طفولتي فيها، مجرّد رجل يبحث عن أسرار رجولته وقدرته على الإنجاب. اعتدلت متخذًا الوضعية التصحيحية التي ابتكرتُها بنفسي لتساعدني على التوازن حين تُحرِّك حصاة مجهولة كثبان الرماد في أعماقي. جلسة جانبية أسند فيها ساقًا على ساق. أكفّ عن هز قدميّ، أتحكم باتساع حدقتي عينيّ حتى لا أبدو غرًّا مندهشًا، أُثبِّت حاجبيّ كي لا أفقد وقار الجمود الذي يجعل جبهتي صلبة غامضة كأنّها ضُربت بإبرة بوتكس مباشرة. أرخي كفّيَّ فوق فخذيّ بلا مبالاة، لا ألوّح بهما كيفما اتفق، وأمسك نبرات صوتي، أتحدث هادئًا متأنّيًا، عاطلًا عن المشاعر أو الحماسة البلهاء. صوت فخيم بليد لا ينقل ما يدور من هزات وبراكين في أعماقي، صوت يسترني

بعظمة ووقار زائفين. سأعطي الطبيب حُقًّا من بولي الأصفر الدافئ وحُقًّا من حيواناتي المنوية السابحة وحُقًّا من دمي، وسأنصاع لأوامره بتقديم كل هذه الخيرات إلى مختبر مستشفى تشيلسي آند وستمنستر. لن يفهم دوافعي باختيار عيادته البعيدة، ولكني أفهم إجراءاته العلمية في البحث عن أسباب حالتي.

مجددًا يحاول الإسكوتلندي بردائه الأبيض تبديد قلقي في أحاديث جانبية لا تتعلّق بحالتي، يفقد مرحه ويتحوَّل إلى إنجليزي متعجرف، يتحدَّث عن كورونا، ولا يقدم معلومات سوى التي قتلتها وسائل الإعلام عرضًا وبحثًا. ولا أظنه يملك معرفة أكثر مما يملك ممرّض متواضع في عيادة هامشية في بوادي مادبا، إلّا أنه يتحدَّث بزهو كأنه خبير بالوباء الذي اجتاح العالم والذي سيغيّر وجهه إلى الأبد. لم يكن المرض مفاجأة للدوائر العلمية الضيّقة ولكنّه لطمة للناس العاديين، يسخَرُ الطبيب من رئيس الدولة العظمى الذي يتوقع انحسار الوباء مع ارتفاع درجات الحرارة، مندهشًا من دائرة المستشارين التي تقف وراء غباء ترامب، توشك أحاديث الطبيب على نيل اهتمامي، لا أعتبر ترامب غبيًّا، ما دام مليونيرًا على الأقل، ألا يقول الأمريكان: «إذا كنت ذكيًّا فلماذا لست غنيًّا؟». لا شك أنه عبقري حين يتعلّق الأمر بجني الأرباح، لكنَّ مسًّا من الجنون والأوهام المريضة أطاحت به فارتضى الانتقال إلى عالم السياسة كاشفًا ستره، متبخترًا عاريًا مثل إمبراطور الحكايات.

يرجّح الطبيب ازدياد وحشية الوباء ومزيدًا من الإجراءات الصارمة، أما أنا فكنت بانتظار نتائج الفحوص التي أجريتها، انتظار يصيب بلعومي بالجفاف ويربك حركة أناملي، يحبس أنفاسي ويخنق العواء في صدري.

لا تعنيني حديقة هايد بارك. تفاديتُها وأنا طالب لكثرة المتنزهين بكلابهم التي تفقد هدوءها إذا مرّت نابحة محاولةً الإفلات من رسن أصحابها، ولست معجبًا بما تتيحه الحديقة من إلقاء الخطابات، إنه استعراض مبتذل للحرّيات، وهو خدعة كبيرة كي ينفّس العالم عن احتقانه ويسترخي مثل بالون يفقد انتفاخه المجيد في فساء تدريجي. لم أروِّض قدمي على المشي منذ اقتنيت سيارتي العمّانية، ولكني في ذلك اليوم شعرت بالحاجة إلى السير تحت الأشجار، وأمامي بساط العشب الأخضر الممتد. لم أتعجَّل العودة إلى الفندق، تركت سيارة الأجرة ودخلت الحديقة متفاديًا المتنزهين القلائل. لعلّ مخاوف الطبيب حول الوباء وصلت إليهم فلم يخرجوا إلى رياضة المشي المحببة للإنجليز الأكثر هدوءًا والأقل صخبًا، أو لعلّه الوقت المبكّر. ماذا لو غادرت الحديقة وذهبت إلى شقة حمدان الإماراتي؟ أُقلّب الوثائق التي تحمل صورتي وأسماء متباينة. كبحتُ فكرتي الطارئة، لا شيء يأخذني هناك هذه المرة، وعليّ السيطرة على تحركاتي والوفاء لمهمتي الوحيدة خلال هذا السفر. لأتأمّل وجوه العابرين عن بعد، أتفحَّص براءتهم وغياب تركيزهم وهم يمرّون بي، إنه عالم آمن مسترخ رائق. مع ذلك قد تُتاح لي الاستعانة

بواحد من شخوصي المختبئين بالشقة لإتمام صفقة ما، فما زال السلاح الصغير سيد الحروب الكبيرة ومفجّر جنونها وشططها، وما عليّ إلا تهيئة المسرح ليلعب فيه، فالحياة مسرحية عظيمة تفوق خيال الكتّاب والمتأدبين وواسعي الخيال. وهأنذا أسير كما لو كنت مستمتعًا مطمئنًّا بين أزهار وأشجار هايد بارك، تلسعني نسائم باردة، أبعد عن خاطري أوجاع الضحايا الذين يقعون تحت رحمة شخوصي الأخرى. عادة لا تعنيني أوجاعهم، ليس عليّ جَلد ذاتي أو تعذيبها بعويل الذاهبين إلى الجحيم حتى لو كنت أنا مَن مهّد الطريق، بل إن الصرخات التي تطاول السماء ترياقي الحقيقي، دليلي الذي لا يقبل الشك على أني موجودٌ وفاعلٌ بقوة، مقيمٌ في منزلة من الجنَّة بعيدًا عن الهَول الذي يحيط بحياة العاديّين، وليس على من ينعم بالجنان أن يشغل باله بالآثمين والضعفاء والضحايا، عوضًا عن أن يلين ويرحم. ليس على المتفوّق المميز أن يأبه للفاشلين والمسحوقين؛ فلو أنهم يستحقون رحمتي ما تخلّت عنهم رحمة ربهم، مع ذلك فأنا في إجازة أنعم بالهدوء دون التفكير بالصفقات القاتلة، تاركًا ذلك لأنظمة تحكمها الشياطين، محتفظًا بتقديري لنفسي. يداهمني شيء من الرعب والذعر لثوانٍ خاطفة، شكّة دبوس أو نبضة ضوء تقفز كما ونّة في القلب.

أنا الذي تحرَّكتُ بين المتناقضات كلها خفية، أكثر سمّية من الزئبق وأَرشق. كيف أمشي في ممرات هايد بارك قرب نافورتها الشهيرة

والتماثيل الصامتة رجلًا مذعورًا قلقًا كأنّي أبٌ يذرع ممرّ المشفى وأمرأته تلد له وليّ عهده؟ أيّ مخاوف تضرب أعصابي؟ لمَ لا أفكّر بمنطق بارد كعادتي؟ كم أكره تلك الحديقة التي تضعني في قفص الاتهام وتدفعني إلى الدفاع والتبرير.

بدت لندن في الأيام التالية مدينة مخيفة، مثل ساحرة شمطاء تتعقّبني على مكنسة، تحبسني في حجرة الفندق المرفّهة وهواجسي الداكنة. لم أعاود الخروج إلى الحدائق، وكنت أطلب وجبتي في السرير لا أبارحه إلا إلى النافذة لأراقب دولاب عين لندن الخرب. تحدَّثت مع رجاء مرتين، قلت لها:

«إن باريس باردة هذا العام».

وتحدثتُ مع شقيقها في المصنع قلت:

«إن الشوكولاتة في أوروبا ما زالت ألذّ مما ننتج، وعلينا تطوير صناعتنا».

ولم أكن في باريس ولم أتذوق الشوكولاتة الأوروبية، مارست دوري بنجاح وتابعت مختبر المستشفى. مضت أيام ثقيلة تثير الضجر لم يتغيّر فيها شيء سوى ما تبثّه قناة الجزيرة حول وفاة الرئيس المصري السابق حسني مبارك؛ الرجل الذي خرج من رأس السلطة إلى قضبان الزنزانة إلى البراءة الحلوة. استعدت رباطة جأشي حين تلقّيت هاتفًا يطلب مني مراجعة الطبيب فالنتائج صارت بحوزته.

ماذا لديه ليقوله؟ أنا رجل منطقي، سيكون من السهل عليّ قبول النتيجة والتصرّف على أساسها، ليس هناك ما يستدعي حيرتي مهما كان ما لديه من أخبار. عليّ تحريض نفسي على التفاؤل، فما ينتظرني في عيادته لا يتعلّق بقصاصٍ يقع على كاهلي. لا أؤمن بمثل هذه الخزعبلات، حتى وأنا تاجر سلاح وموزّع مخدرات فإنّ ذلك ليس دليلًا على أني رجل فاسد، فأنا لا ألاحق الولدان، لا أغتصب النساء، أواقعهن برضاهن، بل إنني مواطن صالح، لم أقتلْ وإن قتلوا بأسلحتي، ولم أسرق، أبيع وأشتري بذمَّة عالية مثل تاجر بضاعته خيار وبندورة، كما كنت رؤوفًا لا ألوّث حَلَقَتي المقرّبة بقذارتي. لي قلب ليّن يتوسطه ثقب قد تتسرب منه محبّة خائبة أو تعاطف تافه أو رحمة لعينة، وفرح ساذج. هذه أشياء لا تشبهني، أستخدمها وسائل هجوم إذا احتجتُها وقد تصير خنادق حول قلعة روحي الخشنة. بكل المنطق الذي أعرفه خطرت ببالي أسوأ الاحتمالات وحلٌّ بسيط للغاية، إذا كنت عاجزًا عن الإنجاب وأرادت ولدًا، لن أذهب إلى الخطط الغربية بتبني أطفال مجهولي النسب، فأنا لن أطيق طفلًا من صلبي، فما بالكم بمخلوق غريب؟ وليس اقتناء القطط والكلاب مفيد في حالتي، ولن ارتضي تضحيات ممجوجة لامرأة تدّعي الوفاء والرضا. سننفصل، ليذهب كلّ واحد منا في طريقه، طلاق صغير في هذا العالم المرّ ليس مأساة كبيرة.

العيادة هذه المرة شديدة البياض، ووجه الطبيب كوجه قطٍّ عجوز، والقطط لا توحي بالثقة وإن اصطنعت الحكمة. فَقَدَ الطبيب إيرفينغ مرحه تمامًا وشبك أصابع كفيه وتحدث كمن سيتنهَّد، هيا قلها: أنا عقيم! لكنه يراوغ، لا يشفع له تخصصه بالخصوبة للحديث عن الجينات! ما لي وذاك؟ في التفاف طويل بعض الشيء شرح لي أني أملك تنوعًا في الـ«DNA». ماذا يعني هذا أيها المتحذلق؟ حك جبينه، انتبهت أن جبينه متغضن، وقال:

«أنت تعاني من حالة تدعي في الطب كايميرا».

دليله الأوضح اختلاف لون حدقة عينيّ، ولم تكن تعنيه مصارحتي بالحالة لولا ندرة ما وشت به الفحوصات. المصابون بتلك الحالة هم اختلاط جيني من توأم لم يكتمل على الأغلب، وتسلَّلت بعض خصائصه إلى الآخر فانطوى جسده على اثنين أحدهما مجرد طيف لا أثر له إلا في مختبرات الفحص الدقيق. ما الجديد إذن؟ لطالما ظننت أن اختلاف لون عينيَّ يذكرني بتوأم لم ير النور، هل يؤثّر هذا الأمر في قدرتي على الإنجاب؟ لكن الطبيب مولع بتفسير معنى كايميرا، يقول محاولًا العودة إلى مرحه:

«هل قرأت هوميروس؟».

إضاعة الوقت على هذا النحو لا تعجبني، أجيب ساخرًا بسؤال:

«هل وجدتُم آثاره فيّ، هل هو جدّي مثلًا أو توأمي؟».

يشرح جادًّا كأنه يهرب من التصريح بشيء آخر:

«وردت كايميرا في إلياذة هوميروس، إنها مخلوق مذهل، لا يقهر، من سلالة الخالدين. ترسلها الآلهة لتحارب مع مَن اصطفتهم. لها رأس أسد وجسد عنز، ومؤخرة أفعى، تنخر زفيرًا مرعبًا ونيرانًا كالبراكين، ولا يمكن الاقتراب منها».

«أهذه الأسطورة أم المرض؟».

يردُّ نافيًا:

«ليس مرضًا، إنها حالة، تحدث بنسب ضئيلة جدًّا بين البشر وتكثر في الحيوانات، لكنها ليست مرضًا، أطلقنا عليها في الطب الاسم نفسه القادم من الأسطورة لأنها اتحاد مخلوقات كثيرة معًا».

«وماذا يعني هذا بالنسبة لي؟».

اعتصر كلماته بعناية:

«أنت محيّر بعض الشيء، هناك حالات كما قلت لك هم نتاج خلط بين توأمين، وقد تصفّحت الدراسات في هذا الشأن عندما وصلتني فحوصك، يحدث أن تجد مثلك، ولكن أنا أقع لأول مرة في حياتي على تلك الحالة الخاصّة جدًّا».

بدأت أفقد صبري وأعتقد أنّ وجهي احتقن ونفرت شرايين رقبتي وأنا أستفسر عن دلالة ما يقول.

«أنت حالة غريبة، في العادة نجد جينات مختلفة في الرجل الواحد، جينات بشرية طبعًا، ونجد لدى الحيوانات المصابة بالحالة نفسها جينات لتوأمها المفقود، ولكن من النادر جدًّا أن نجد اختلاطًا بين جينات بشرية وحيوانية».

توقف عن الكلام وابتلع ريقه، ثم تنفَّس بعمق وصفق كفيه معاودًا اصطناع المرح:

«هذا أنت؛ مزيج مذهل».

في عينيه جنون العلماء حين يقعون على اكتشاف، ولا أعرف ما الذي اتّقد في عينيّ تلك اللحظة، عالم لا معقول، خرافي يتخفّى بثوب العادية والمنطقية، يوقع قلبي في صدري خبطات مرعبة كقرع طبول إفريقية.

يمسك ركبتي بباطن كفيه ضاغطًا، هازًّا رأسه ثم يربت عليهما في لمستين:

«لا تهلع، الأمر ليس مخيفًا حقًّا، لن يؤثر في حياتك، أو صحتك البدنية، لم يحدث أن قلب هذا الأمر حياة إنسان وأفسدها. ثم، لا أظن أن له علاقة بموضوع الإنجاب، أليس هذا هو المهم؟ ما هو واضح أن هناك نقصًا بسيطًا للغاية في الحيوانات المنوية عندك، وهذا يسهل علاجه».

نقص؟ إذن حيواناتي المنوية الصغيرة التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، تطيح بي وتتيح للحيوان الكبير الذي يسكنني قضم رجولتي،

تسخر مني وتؤكّد سطوتها، تلعب بي كأنّي حيوان خسيس لا قيمة له، أكرهها وأقر بقرابتي إلى الوحش الأسمى؛ الذئب.

لو أن هذا الآرثر الإسكوتلندي الضاحك قبض روحي بين أصابعه الغليظة وعصرها لما شعرت بمثل ذلك الألم الذي شقّ صدري تاركًا أخدودًا غائرًا. سحقت الحقيقة العارية غروري، لن أنجب، لم يكن هذا ما يهمني، ذكورتي ناقصة قليلًا، ولا أنوي استكمالها بتناول الدواء. لكن الوجه الوحشي للحقيقة كان مذهلًا، تأكدت من شكوك راودتني طوال عمري، اتّضحت الصورة الغامضة التي عرفتُ نفسي من خلالها دائمًا، يمكنني الآن إذا ما واجهت مرآتي رؤية كايميرا ضاحكة هازئة جذلة بانكشاف أمرها، حقيقة كفيلة بشحن غرائزي المتوثّبة وإطلاق عقالها حتى الجنون، يا للذئاب حين تنتفض وتتقد المشاعر!

يريد الطبيب تفاصيل حياتي ومزيدًا من الفحوص ليفهم ويحلل منبع حالتي النادرة! وما الفرق؟ إنها مجرد حالة واقعية حتى لو وقعت لواحد من مليار إنسان على ظهر الكوكب، لكنها بالنسبة لي الحقيقة الوحيدة التي تخصّني. إنني كايميرا، وحش خرافي لا أصول له، قد يشتط خيال الطبيب الأبله فيظن أن أمي ضاجعت ذئبًا في البراري العربية المفتوحة على الشمس والغبار. هذا غير منطقي حتى بالنسبة لطبيب غربي، فكيف وأنا أعرف أمي التي لم يكن لها من المناقب إلا ابتداع نظرية ملاقط الغسيل، ما عدا ذلك ما ظنَّتْ نفسها إلا مجرّد زائدة دودية، مثل هذه

المرأة لن تسلّم جسدها لذئب بري فبالكاد سلمته لمنصور راعي الدلة والفناجين.

لم أفقد صوابي كما يجدر برجل ضربه حجر على رأسه، ولم أعترف بالصدمة. مشيت بهدوء، قادتني قدماي إلى شارعٍ لندنيٍّ عريض، الأفق مغطّى بضباب أشبه بالرماد، تتراقص أمام ناظري ذرات تشبه السكن المتطاير من جمر ينطفئ، ويستبدّ بي التباس مرّ. لا بد أن الزمن توقَّف، كأنّي أسبح في فقاعة، لم أفهم تفاصيل الإنجليزية السمجة التي تحدث بها الطبيب، لعلي أخطأت فهم التفاصيل العلمية التي حاول الطبيب شرحها، أو أن عقلي حاد في ترجمة غير دقيقة فوتت المعنى الصحيح، كأني أبحث عن خيارات تختلف عما قيل، ولكن المعنى ظل واضحًا إلى حدّ فادح وجارح؛ إنني حيوان أكثر من كوني إنسانًا، وما هذا الجسد البشري المغلوط إلا التباس طارئ، قصعة عُبئت بما ليس يصح لها. أردت العثور على عبارات محدّدة تعبر عن وقوفي الخطر على حافة الحياة، عند الهاوية تمامًا، حيث يمكن أن تعصف الريح بردائي فأسقط عاريًا. قلَّبتُ ذهني كما يعبث صبيّ بعودٍ يابسٍ في كوم رمل، لاهيًا بلا وجل عميق. لا أرغب في أعماقي بالخلاص من ورطتي العجيبة، مكتفيًا بالسير في شوارع لندن تائهًا وحيدًا وقد هرب أكثر الناس من وجه كورونا مختبئين في بيوتهم. لعلها ليست حافة الحياة، ولكن حافة الجنون، أو العقل! يبدو الخيط الذي أتأرجح عنده واهيًا متأرجحًا.

تقطع قدماي الشارع اللندني، قِلَّة خرجوا لقضاء حوائجهم، تمر وجوههم غريبة شديدة الاصفرار كأنَّها جثث بعثت، هل يملكون جينات مجنونة خفية مثل جيناتي؟ هل اختلطت تركيبتهم بين بشر وبهائم كما جسدي؟ ترى عيناي السابحين في لجة الحياة حولي من صنف الإنسان، لكني لم أعد متأكدًا! لعلّ في كل واحد منهم ذلك المزيج الفذّ، لعلّ أحدهم كان أو صار حصانًا، أو هرةً، أو طيرًا، أو سمكة أو دودة تسعى. كل شيء جائز لكل هؤلاء الذين ينتشرون على الأرض، أو لعلّي وحدي المتفرد الفريد، حيوان في جسد بشري؟

في حجرة ذا سافوي الفاخرة أزحت باقة الأزهار الملونة القبيحة التي تحجب المرآة ووقفت أتأمَّل ما ينعكس على سطحها الفضي اللامع. كنت أنا، كايميرا الجميل، لم أرَ وحشًا طالعًا من الزجاج الذي يُشعُّ ضوءًا؟ ولا شممت عفونة، ولا سمعت صوتًا منكرًا، مجرّد رجل عادي على شيء من وسامة، تفتحت سمرتي القديمة بعض الشيء، وبدا تباين لون عينيَّ ساحرًا غامضًا مثيرًا للإعجاب لا المخاوف، ذقني مستدقّة وفكّي بيضاوي، حلو، لعلّه أنثوي بعض الشيء، أين يمكن أن يختبئ الوحش الذي يتحدثون عنه؟ هذا هراء. فكل المجرمين كانوا على درجة من الوسامة والحضور، هذا ما يسمونه «كاريزما»، المجرمون الطلقاء في العالم لا يشبهون محمود المليجي ولا توفيق الدقن، ربما كانوا أقرب شبهًا لعمر الشريف وجورج كلوني، الأشرار لا يشبهون دراكولا في مخيال

الناس، بل ربما كانوا في سماحة صاحب بقالة متواضعة في حيّ شعبي، رجل بدين بشوش كسول يجلس على كرسيّه يبتسم للمارّين، يناديهم بأسمائهم، ويدعوهم لاحتساء الشاي معه، ويؤجّل ديونهم بلا ضغينة. أنّى لنا أن نعرف أين يختبئ الوحش وفي أي صدر يجد ملاذه؟ إنه ينبت كما أعشاب برّية بهيّة الخضرة تلتهم الحدائق والبساتين بين الأشجار والبيوت.

لا أبرّر جيناتي ولا فعالي، فالشر حُرٌّ لا يُعرَّف ولا يُوصَف.

تركت حجرتي إلى مكاتب رجال الأعمال في الفندق، أغلقت على بابي لساعات، وفتحت ملفات كثيرة عبر الحاسوب أبحث عن إجابات لأسئلة غامضة، تنقلت بين العلوم والأساطير. يستلُّ العلم دائمًا بداياته من رحم الأساطير، من الأخيلة المجنّحة، من الغيبيات التي تحتاج إلى الصدفة أو التمحيص، من تفاصيل مثيرة لا قوام لها، لكنها تدغدغ الروح وهي تتحوّل إلى أرقام ومعادلات ورموز، أو تتمدد على طاولة التشريح مثل أرانب حيّة مشقوقة الأحشاء، أو تصير مجرّد نقطة مكشوفة الجزيئات تحت عدسة الميكروسكوب، تُصبُّ الخرافات في دورق الاختبار لتخرج من الجهة المقابلة علومًا منطقية يمكن قياسها، تُقنع العقل وتُشبع الحواس ثم تُغيّر وجه الحياة.

لم يكن هذا العالم يومًا ثمرة مقسومة إلى نصفين متعارضين: نيئ وناضج، حقيقة وخيال، عقل وجنون، جهنم وفردوس. إنه أكثر شبهًا بي،

حيث تذوب الأشياء في بعضها كما أذوب، لست حقيرًا دنيئًا ولا تاجرًا للموت وكيلًا للشيطان، أنا توليفة للبشري، قابيل الذي أَحَبَّ بكل خليّة من خلاياه، وكَرِهَ بكل نَفَس خارج أو داخل إليه. ليس عليَّ الاختيار على أيّ وجه أكون؛ جانب العتمة أو حيث يفجّ النور، على البرزخ بينهما وفوق صراطهما المستقيم أستقيم، لا النور يتسيّد ولا الظلام.

ألا يرتكب الأخيار آثامهم كل يوم مقنعين بالستر؟ ألا يشقّون جدار الموانع ويحتالون على القواعد في كل تصرف ثم يجنحون إلى التبرير؟ الشرُّ ليس قبيحًا حقًّا، إنه يذوب عذبًا كما الشوكولاتة، يلمع مثل هلال بهيّ في العتمة، يفوح شذى كزهرة قُطفت للتو فتبدَّد عطرها، الشر جميل أنيق، يبدل ثيابه، وتسريحة شعره، يتبرج كغانية تغوي البشر، ينفث الخوف على مهل وبخفة، يمتزج بذرات الأوكسجين التي تعُبُّ منها الصدور. الخير والشر توأم سيامي لا ينفصل. كل الناس بلا استثناء قراصنة عور يقودون سفينة الشر للارتطام بجبال خفية ثم يكون دمار.

ألا تقتل الحروب المدني والعسكري، البريء والمجرم، البطل والجبان؟ ألا تهاجم الفيروسات الغني والفقير؟ على الناس أن تُسامح شرّي وتدرك جمال عينيّ الملونتين، ما أنا إلا طباخ شوكولاتة، أُحلّي أفواه الناس التي تشبّعت بالمرارة، أغيّر طعم الشر الذي أديره وذلك الذي اعتادوه عبر الشاشات. صار الشر محببًا، بنى الناس معه ألفة ومودة لا يمكن إنكارهما، الهروب من الشرّ مستحيل، فهو ينساب مثل مياه جوفية

تغذّي الأشجار الوارفة، يتنكر مغيّرًا مسمياته لتصير الفضيلة فاحشة، والجبن دهاءً، والخيانة حكمة، والشجاعة جنونًا. إنها كايميرا لا مثيل لها، إنه عالم بنى تقدمه على معالجة الخوف بالخوف. ماذا أكون أنا وسط هذه اللّجة العفنة؟ نقطة في محيط، قطرة ندى في يوم ماطر، نملة عرجاء بينما مملكة النمل تُبنى وتتعملق؟!

جئت في طلب معلومة، أو علاج في أسوأ الأحوال عندما تصوّرت أني سبب عقم رحم امرأتي، ولكني لم أقدّر أني نبشت حفرة غامضة مخيفة، إنه صندوق الشر الذي تختبئ كايميرا في قعره، ثم تختارني قاطعة ملايين الناس وآلاف السنين متسلّلة إليّ دون غيري، أم تراني واهم وكايميرا المخيفة وزَّعَت نفسها بعدل بين الناس؟

العالم كله قطيع كايميرا منافق كاذب، يعالج ضميره المزعوم بوسائل جديدة، يمهر المناضلون أسماءهم في بيانات الشجب والرفض، لكنهم يتلمّضون مستمتعين بطعم الذبيحة.

كلكم كايميرا.

وضعت صوت هاتفي المحمول على خيار الصامت لفترة هروبًا من ملاحقة رجاء والرنين المنتظم المزعج، كما تلقّيت مكالمة من عيادة الطبيب، أظنه يبحث عن فأر التجارب الثمين الذي عثر عليه، وأنا مستودع الأسرار، كيف سيجد الطبيب العبقري ضالّته بمثلي؟

فصلتُ بطارية الهاتف واسترحت.

لم أغادر حجرة الفندق لأيام ولا بدَّلتُ ثيابي، ولم أطلب طعامًا، كأني أجوّع الحيوان فيّ، حتى جاحت أمعائي منبِّهة. وقفت تحت وابل ماء دافئ ودعكت جسدي بالصابون تاركًا رغوته العابقة باللافندر تنساب أملًا بأن تطغى على رائحة جلدي. حلقتُ الشُّعيرات الخشنة التي تناثرت في وجهي، ارتديت ثيابي، همتُ على وجهي ما يقارب الشهرين والعالم في فراغ، الذعر يجتاح الشوارع العريقة ويُخلِيها من الناس لي وحدي ولأفكاري السعيدة المقيتة. تنبّهني شاشة التلفاز المفتوحة على الدوام في حجرتي إلى أن الرحلات الجوية توشك أن تتوقف في وجوه المسافرين الذين يتدافعون للعودة إلى بلادهم، بصمت وهدوء أعدت البطارية إلى هاتفي وتنفست بعمق وأنا أرتب ثيابي في حقيبتي، فقد قررت العودة إلى عمّان.

***

يستقبل العالم كورونا بما يليق به، إجراءات صارمة تطال الحركة والتنقل والمصافحة والتقارب بين أجساد البشر، لعلّي آخر الهاربين من المملكة المتحدة التي لا تغرب عنها الشمس في الماضي والتي لم أر فيها شمسًا، إلى مملكة صغيرة تتقلّب الأجواء والأهواء فيها. كانت الحكومة الأردنية قد دخلت في تطبيق الإجراءات الاحترازية بصورة صارمة، وكنتُ أدرك أني ذاهب بإرادتي إلى الحجر الصحي الإجباري الذي بات يُطبَّق على جميع الداخلين إلى الأردن، إذ أنا ملزم كغيري من القادمين عبر

المطارات والمعابر الحدودية بالدخول في حَجْرٍ يمتد أربعة عشر يومًا. شيء من العبث والفرح يشوب أحاديث الجالسين على مقاعد الطائرة العائدة، إنهم لن يذهبوا إلى بيوتهم، ولكن إلى فنادق البحر الميت أو عمّان الفارهة. إجازة مدفوعة! يبدو العقاب الجماعي رؤوفًا واعدًا. عن نفسي لذت بالصمت، ومن وراء نظارتي السوداء التي تخفي آثار السهر والكمد وتباين لون حدقتي عينيّ، ومن خلال الكوّة الصغير للطائرة، رأيتُ الغيوم الرمادية الداكنة تبرق أطرافها بالتماعات برتقالية خلّابة كأنها جمرات في موقد الحياة.

لم أفقد هدوئي كما حدث مع المتجمِّعين في ردهة الفندق، تصرّفت مثل سائح صبور، ذرعت البهو العريض للفندق الفخم ومددت ذراعي طوعًا للفحوص، وانتظرت مفتاح حجرتي وسط تلاسن المسافرين ورجال الأمن والممرضين والأطباء. ساد الذعر وهم يكتشفون أنهم سيكونون سجناء مرفّهين لا مجرّد زبائن فندق فخم. الكمامات التي غطت وجوههم تتوقّى غدر الفيروس اللّعين تذكّرني بكمامة كانت تقيد منقار الصقر الصياد الذي يقتنيه الشيخ متباهيًا، تذكّرني بكمامات الكلاب الهائجة المتوحشة، بكمامة شُدّت على وجه الممثل أنتوني هوبكنز في فيلم صمت الحملان. الآن حان وقت الحقيقة والعالم كلّه يقبع تحت قبضة الكمامة. تصوُّرٌ حداثي مباشر قميء ووقح، ليس هناك أبرياء!

ينتهي الانتظار كأنه أقصر المراحل، وأصعد إلى حجرتي أرفع حقيبتي متمهلًا رغم أنها كانت خفيفة للغاية، أُسندها إلى كرسي في زاوية الحجرة، أتأمّل السرير العريض بملاءاته البيضاء النظيفة. يحتمل أن أحدًا قبلي مصابًا بكورونا تمدَّد هنا؟ ألمح التماعًا مألوفًا فوق الوسادة، أجلس ضاحكًا وأمسك بحبة الشوكولاتة الملفوفة بورق قصديري والموضوعة فوق الوسادة ترحب بي، عرفتها من نتاج مصنعي الصغير، أقلّبها منتشيًا، وأقرأ ما طبع بخط ذهبي على شريط ملصق بها: «اللّذة مهمتنا». إنه شعار عبقري حقًّا.

أتذكر رجاء التي انقطعتُ عنها فترة كافية لإثارة ذعرها، وعدت من لندن الباردة الفقيرة الغالية دون إحضار هدية كما عوّدتها، طلبت رقم هاتفها بتكاسل متعمّد كأني غير مهتم البتة، جاءني صوتها ناعسًا، ثم زاعقًا حين تبيَّنت هويتي:

«أين أنت؟ هل أنتَ في عمّان؟ لماذا لم تجب على اتصالاتي منذ شهر.. شهرين؟ لقد قتلتَني خوفًا».

كأنها تدغدغني، لم ألمس منها يومًا تلك اللهفة أو الاهتمام المقنّعَين بعصبية وملامة صفراء.

«فقدت هاتفي في باريس، وانشغلت بترتيب أمور عودتي».

«إذن؟ أنت هنا؟».

«محجور في البحر الميت».

«لا لا لا لا، كيف؟ هل؟..».

ارتفعت نسبة متعتي حتى تمنيت لو أمضي في حفر قلقها إلى حدّ الرعب، لكني أجبت:

«لا تخافي، أنا بخير، إنه الحَجر العادي، بعد أسبوعين أكون في البيت. أنا في فندق وكل الأمور على ما يرام».

«كل الأمور زفت».

كأنها ليست هي، الرقيقة المهذبة، انكشف غطاؤها الاجتماعي المرسوم بعناية عن قطة نفش الخوف شعيراتها كالإبر المسنّنة، لم تقل يومًا كلمة «زفت» بهذه الحدة.

«منذ سافرت لم يسأل عني أحد، الناس تغيروا، حتى في رمضان، لم يسألوا عني».

انتبهت إلى أننا في شهر الصيام، واشتدَّ زعيق رجاء في الهاتف.

«كأني لم أجمع الناس على مائدتنا يومًا! حتى أبي خائف مثل الفأر لا يغادر بيته، لم يفكر إذ كنت بحاجة إلى شيء؛ ربطة خبز، قارورة ماء، مكالمة يسألني فيها عن صحتي. لم يضايقه غيابك واختفاء المكالمات. قال: هذه عادتك. ولكنْ شهر كامل! منذ شهر لم تتصل! معقول؟! لا أعتب على الغرباء، الأقارب غابوا كأنهم لا يعرفونني، وأنت؟ كيف تتركني هكذا بلا خبر؟».

«غلطان، آسف غلطان، هل ينقصك شيء؟».

«لا لا، الفكرة أنك لم تتصل، اختفيت! والناس.. لم يسألوا عني. كأني لست موجودة، مكالمة يتيمة لن تضيرهم. كنت أتصل ولا يتصلون.. أدّعي أني أطمئن عليهم، في الواقع أطمئن على نفسي.. عالم حقير. وزاد الطين بلّة أنك لم تعد ترد على مكالماتي».

لم أتمالك نفسي من الضحك. كان شيئًا ممتعًا أن تفقد رزانتها لصالح غضب أسود.

«لا تضحك. الأمر حقيقي، لقد خفتُ، تدمّرت أعصابي، وكرهت الناس. كل الناس».

«لا عليك. كل الأمور ستعود إلى ما كانت عليه بعد أن ينقشع الوباء.. لا تقلقي».

«لست قلقة على الناس، لجهنم الناس، ولكنْ موجوعة على نفسي، وبعد الوباء لن يعود شيء كما كان، لقد انهار العالم كله، نعم. دُمِّر العالم».

كانت مكالمة فريدة لن تتكرر أبدًا، ووجهًا جديدًا متوحشًا استيقظ في صوت رجاء الوادع الرقيق.

يتفكّك العالم الذي نعرفه، لم يعد مجديًا التعرف عليه بالعيون نفسها التي كانت لنا، ولا بالأصابع التي تحسّست حرارته يومًا. ينزلق العالم من بين أذرعنا فلا نكاد نلحق به، وليس مقدَّرًا لنا فهمه لأننا لم ننته بعد من فهم أنفسنا اللصيقة بنا.

رجاء مثل سواها من البشر. يُحبُّ الناس تصنّع الحيرة، يدّعون الارتباك، يقفون كمن يبحث عن الدرب الصحيح عند نقطة مفترق الطرق، لكن الواقع أنهم يُعلّمون طرقهم حتى لو كانت وعرة أو مزروعة بالحفر والعوائق أو سهلة كما سطح الماء؛ لأنهم ببساطة ورغم كل ما يدور حولهم، وما يجدر به أن يغيرهم إلى الأبد، لم يتغيروا؛ فالذين كانوا يقفون إلى اليمين ما زالوا هناك، واليساريون في خنادقهم، وعبدة الله يبتهلون وعبدة العجل يعنتون. وعند كل مفترق يستخرجون جزءًا من ذواتهم المتناقضة، من اللحم الحي لكايميرا المجيدة فيهم، فيتأقلمون. كل ما في الأمر أن عليهم الادعاء أن الجائحة قلبت حياتهم رأسًا على عقب، ثم في وقت ما في ما بعد، يعاودون سيرتهم الأولى، يمضون إلى أهدافهم ويتابعون الأخطاء والخطايا نفسها، يرتكبون ما كانوا يرتكبون من جنح وجرائم، ويتضرعون إلى الله ويُصلّون كما فعل آباؤهم الأولون، ويموتون كما يموت كل البشر.

لقد قلت ما ينبغي قوله وأنقذت روحي، فعلت ما يتوجب عليّ ودفعتُ دَيْني، ولست ملزمًا أمامكم بالمزيد.

من شرفة الفندق الفخم، المطلة على البحر الميت والمسابح الصغيرة الممددة بين أشجار النخيل فارغةً من السابحين والمستجمّين، رأيت العالم لأول مرة على حقيقته. في الأسفل تتمدد بحيرة الملح التي لا تعيش فيها الأسماك، وعلى الجانب الآخر تتمدد إسرائيل وهي تبلع

الأرض والناس، تفغر فمها لاقتناص العالم بشراهة جوع أبدي. وفي الهواء يتبختر أخي وحبيبي كورونا بمرح، يتسرّب إلى أنفاس الناس، ويهاجم رئاتهم كأنه قَدَر مرصود، يهتزّ العالم حولي وتحت قدمي، كما لو أن زلزالًا يمرر لسانه أو بركانًا ينفث ريحه وناره، كما لو كان الثور الأسطوري يرجُّ الكرة الأرضية المرفوعة فوق قرنيه الغاضبين، والبشر غرقى يرفعون رؤوسهم، يبقبقون كمخلوقات برمائية عاجزة، ثم ينزلقون في حمأة طين لزج.

أليس الأجدر أن يفنى العالم كله، ثم يستقيم في هذا الفضاء أو في فضاءٍ سواه وفي مجرة بعيدة عالمٌ جديد غيره؟ لقد وصلت الكارثة إلى الكرة الأرضية أخيرًا، كورونا اللطيفة، الجميلة بقرون استشعارها الملوّنة كأنها مُرسَلَة لنا من الفضاء الخارجي، وكأنَّ اسمها المثير يليق بفتاة لاتينية خارقة الجمال، كشفت الآلهة عن أصغر جنودها هازئة بنا، وها هي حضارتنا المدعاة تنهار من داخلها؟

يلاقي كورونا العادل الغني والفقير، الأبيض والأسود، الصغير والكبير، الأبله والذكي، الشرير والبريء؟ يتقنع ثم يُبرز مخالبَه الطويلة ساخرًا: «خدعتُكم خدعتُكم، كلكم ساقط تحت قدميَّ لا محالة. ماذا ستفعلون بهلعكم حين تتساقطون وتتناهشون وتدمّرون معابدكم فوق رؤوسكم؟ حين تكتشفون السيد كايميرا يعيش بين ضلوع كل واحد منكم سيدًا قادرًا مطاعًا».

في اليوم الأول من شهر مايو عام ألفين وعشرين، كان الهلال قد بلغ ثمانية أيام من عمره، يتكوَّر على مهله موشِّحًا الكون بإضاءة خفيفة، على الشرفة التي تستشرف البحر الأجاج، في الصمت المشبوه الذي خلَّفَهُ فراغ الحركة وسكون الشجر والتماع البحيرة ومسطَّحات الماء كما لو كانت المرايا. انتشر صوتي الشجي وذهب بعيدًا خابطًا الجبال التي تُزنّرُ بحيرة الملح، مرتدًّا صدى يصمّ الآذان..

رفعت رأسي عاليًا وعويت:

«أووووووووو.. أاااووووووووو».